الكاتبة بن عتسو كاتية

نيفليباتا

ساجد
Sadjed
ساجد للنشر والتوزيع

نيفيليباتا

للكاتبة: كاتية بن عتسو

بسم الله الرحمن الرحيم
دار ساجد للنشر والتوزيع
الطبعة الأولى 1445 هـ 2023م.
الإيداع القانوني: 2023/10م
ردمك: ISBN (978-9969-509-36-6)

اسم العمل: نيفيليباتا
اسم المؤلف: كاتية بن عتسو

المدير العام: صيام يمينة حرم برحايل
مدير النشر: عبد الحميد مشكوري
التنسيق: فريق دار ساجد
التدقيق: سلوة علو

صفحة الدار على موقع الفيسبوك:
FACEBOOK.COM/SADJED.EDITION
الموقع الإلكتروني: SAJEDEDITION@GMAIL.COM
الهاتف/الفاكس: 0541389203/0794210405/0664509953/033554911
الناشر: دار ساجد للنشر والتوزيع

جميع حقوق النشر الورقي والإلكتروني والمرئي والمسموع محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ أو التعديل إلا بإذن من الناشر..

[الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر المؤلفين فقط ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الناشر]

نيفيليباتا

للكاتبة: كاتية بن عتسو

إهداء

إلى تلك التي توقظني كلّ صباح لعلمها أنّي لا أستمع لصوت المنبه

إلى الذي يشتكي من صعوبة المعيشة وقلّة الدخل

إلى إخوتي الذين لا يستمعون لأغلب ترهاتي

إلى تلك التي تكبدت عناء تصويب كلّ كلمة كتبتها

إلى كل طيف جسد قصته في خيالي

لكم كلّ الشكر والتقدير

إلى الفتاة المشتعلة بداخلك ملكة القلوب

مثل رقصات جمرات النار...

مثل هيجان العواصف...

مثل قلب المتمرد الثائر...

مثل نغمات انتصارات الأبطال...

فخمة كلمات تصوغينها بين حثايا قلبك...

موجات دوت بين زوايا القصر لكلّ من يشعر بها، يدرك عودتها عودة الأسطورة...

دخلت بجلال، والسكوت حلي يتزيّن به من حولها فمن سيتجرأ ويناقش قراراتها. أخذت صولجانها لتزيد بهاءها وقارا، انحنى لها أحد حراسها باحترام: سيادتك وجدنا الضائع، أو بالأحرى الضائعة، تجول في أطراف مملكتنا، تسأل عن القلب الضائع والفقير، لم نقدم على استفسارها فقد بدت لنا كمجنون يتلفظ بطلاسم.

ابتسمت الملكة بشموخ. وقفت لترفع صولجانها المكلّل بقلب أحمر نابض كبركان، أو بالأحرى هو قلب جذوة النار. صوت ولا أعذب من صوت به روح تأبى الخضوع، رددت به ألفاظها الموقرة التي لا رجعة منها، فقرارها محسوم: أود المجنونة بحضرتي الآن.

جلست ويا لها من جلسة ملكية، نعم هي صاحبة الجمال المفتون، فالورد يخجل من وجودها فاصطبغ بحمرة الخجل وألوان الغروب، تنافس ألوان عينيها التي تأبى أن تكشف عن سر سحرها، ومن سيتحدث

عن حسن هيكلها مادام الجميع يأبى النظر حتى لأطراف فستانها. منحوتة بهالة الرونق، تبعد خصلات متمايلة بين الذهب ونعومة العسل، لتتنهد تنهيدة شاركت بها قصرها الشامخ بحضورها:

- مع كلّ قلوبهم، لكن لم أجد قلبها الدافئ إلى الآن. أهدوني نبضهم لكنّ نبضها هو الكمال. أين لي أن أجدك؟!

أدركت قدوم المجنونة.

- سيادتك نطلب إذن دخول الضائعة.

استلموا إذن الدخول، ففتحت أبواب على عرشها المكتسي بحمرة دموية، تكلمت وما كانت كلماتها إلا شوقا:

- طال غيابك أيّتها المجنونة، فهل لي أن أفهم أنّ مهمتك اكتملت؟!

لتترنح المجنونة وتطلق ضحكة تخجل مكانة المنتصبة أمامها، لتقول وكأنّها أدركت المخفي: جلالتك أصبحت الضائعة، أنا التي كنت الباحثة والمسافرة. جبت بقاع الأرض وتشردت في بعضها. أصبت بالفراغ وبداء الوحدة. أنا التي لم تعرف الثقة إلّا في جوارك. اهتزّ وتر الشك في وجدانها.

- بحثا عن قلب دافئ يناسب نفسك المحتدة والمشتاقة.

- أعتذر منك فما تطلبينه اندثر فأنا تملّكني الفراغ في رحلتي هذه بحثا عن نزواتك. فأصبحت أطلب بل أتوسل ما تطلبين.

- لكن... لكن... حالفك الحظ فقبل كلّ شيء طلباتك أوامر.

تقدمت المجنونة وبين يديها صندوق تداعى واهترأ. ابتسمت بدفء تلك المجنونة ليومض كيان الملكة، فتتحسس في فراغها الأيسر نبضا غريبا.

هرولت الفاتنة إلى المجنونة فاتحة أحضانها لربما تصدق ما بين أيديها، تتأمل ما بين كفيها بشوق، نبضه، دفؤه، كلّه حياة، كله أمل، كله ترنيم أحلام.

- أيتها المجنونة هل لي بسؤال؟

رافعة رأسها ليصدم الحضور، فما رأوه حُرموا منه، منذ قرون مُنع؛ سُلب عن أعينهم، فما التقطته أبصارهم بسمة ولا أبرأ من بسمة، وكأنّها آخر أمنياتها. المجنونة كلها ضائعة من المعجزة التي رأتها، وأخذت ببسمة تلك الملكة.

- كلي آذان صاغية لك يا صاحبة القلب الفقير.

والمجنونة تجاريها، فما أروع أن ترى راحة غيرك؛ تتراقص خصلات شعرها يمنة ويسرة، نافية شيئا يردده فؤادها: "هذا مستحيل"، ولؤلؤ يمطر من مقلتيها: "أ... أهو... لا أبدا، هذا مستحيل... أخبريني أنّ هذا ليس ما أظنّه!"

ابتسمت المجنونة بطيف رضا؛ لتتفاجأ بشيء فاق أحلام طفلة صغيرة تحلم بريشة وعلبة ألوان؛ باندفاع ابتهجت تلك الفخمة بهالتها الرقيقة.

المجنونة تكلمت بهمس:

- فككت اللعنة بجمع القطع المفقودة، دفء من أحضان الشمس، قطعة من رقة ضوء القمر، بسمة من حقول الأرض، وهمسات من رياح الربيع، ولقد تمّ لم شمل قلب الأم وها هو بين يديك ملكتي. ابتسمي وأخيرا ستفك لعنة الوحدة والفراغ، لعنة الألم والهوان، سيذهب الأسى

عنك، وسينبض أخيرا عرش قلبك، فلا حاجة بعد الآن لقلوب مهترئة فهي لا تناسب تعطش وشغف جوارحك لها. عاد قلبها وسيعود الأمن لأطراف أحلامك، وستشدو من جديد في حدائقك عصافير السرور، وتلبس أزقة مملكتك ألوان الحبور.

لملكة بحثت عن قلوب دافئة لروح صلبة تعدّت أحلام أنثى. لمن وسمت بشعار النبالة، فارتقت. لتلك التي نجوم الليل تضفي عليها هالة الحياة.

- لك يا ملكة القلوب... اسمك سيُحب لو ذكر على الصدور. شامخة أنت ولا داعي للخضوع أو الخنوع. المجنونة تهديك بسمات بعدد النجوم، وأمنيات بسعة هالات الضياء والنور.

جنون طبيبة

- ‹‹إن من يعيش بلا جنون ليس بعاقل كما يظن››. لاروشفوكو

- المجنون هو أكثر الناس إدراكا.

في أعلى طابق من المشفى أخذت لها مكانا وهي تضحك بجنون، شكلها غريب، كلامها عجيب، وكأنّها بلا لبيب. تتربع هنا وهناك بين جدران غرفتها البيضاء، لكن هي تصرّ أنّها سوداء. يعتلي مئزرها الأبيض بقع ألوان عشوائية، بين قامتها القصيرة ونظاراتها التي تحتل معظم وجهها المدور بملامحها النقية، تبدو وكأنّها ضائعة في الأفق، أو لنقل أنّها تعرف ماذا ينتظرها بنهاية هذه الأفق. ابتسمت ببلاهة لتردد بين أنفاسها المتناغمة: "عليك أن تصبغ الجدران قبل أن تختفي".

التحقت بأقرب مصحة عقلية بعد تخرجها مباشرة. كان الأمر بالنسبة إليها كإنارة غرفة سكنها الظلام لمدة غير معلومة، تحقق حلمها بعد كلّ ذلك الصبر والتفاني في دراستها، وبداية عملها لم يكن سلسا بل على العكس تماما؛ فقد تعرضت للتنمر من طرف مسؤوليها من أطباء المشفى كونها مستجدة بالعمل، ومتمكنة من مهاراتها.

المستشفيات ليست حقا مكانا وديعا، كانت دائما ما تعود إلى ملجئها مكسورة ومكسوة بالذل والخذلان وحيدة نفسها لا حضنا دافئا يأويها، محتقرة لموهبتها البارزة، ومحسودة على تحكمها المهر بقلوب المجانين. يمضي يومها بالشتائم، ويتجاوز في بعض الأحيان إلى ما هو أقسى، ضرب وتكليف بأعمال شاقة لا تتناسب مع روحها المتطلعة للأمام بل لا

تتناسب حتى مع مؤهلاتها البارزة. يوما بعد يوم تترنح مثل خشبة ضعيفة تحملها رياح التنمر والاحتقار، لكن للجنون أنامل العبث والتغيّر.

ضاقت ذرعا، طفح الكيل بها، وها هي تبكي بعدما شتموها وضربوا بأحلامها عرض الحائط، حين وجدوها تمدّ يد الأمل لأحد المرضى، وتلهمه التغيّر للأفضل، كان المريض مبتهجا بدفء عينيها، متجاوبا مع نغمات كلامها.

احتار المجنون المريض من وحشيتهم معها، ما ذنبها إن كانت مميزة عن غيرها، أم لأنهم لم يستطيعوا أن يلونوا جدران المصحة كما فعلت هي بقلوبهم. هب ليساعدها، ليدافع عنها، لكن من سوف يصغي لمجنون فقد عقله في أوّل منعرج في حياته.

- لما لا ينظرون إلي أخبرتهم كم من مرة أني عاقل فقد فهمت حياتي بطريقة مختلفة عنكم، هذا كلّ ما في الأمر، لما أصلا أنا مربوط في حين أن عقولكم المربوطة عن فهمي؟ أنا أعيش.. أنا أعيش نفسي.. أنا أعيش ذاتي.. أنا أعيش رغباتي.. أنا متحكم بذاتي.. أنا الرجل المجنون الذي رمى أعمال المكتب في بئر على قارعة الطريق. أنا الرجل الذي أخذ يرقص على المكتب ليس لأنّه فقد نفسه ضغطا. بل لأنّه فقد وجوده كشخص يراه الناس كواقع؛ لأني فقط أفعل ما يحلو لي، لأنّي فقط لست مجبرا على قوانينكم، لأنّي فقط أتنفس الحرية.

دفعت من حولها؛ ودفعتها هي للهروب. جرت بعيدا بعيدا عن قفص الضعف، وها هي تختفي عن نظري كطيف فراش. لكن بقلبي شيء يود

أن تظلّ مشرقة بجانبي دافئة كأحضان شمس الصباح... أنا... أنا... أفتقدها!

شهد المجانين حال طبيبتهم، تنهار ولم يكن بالشيء السار. الجميع وبدون استثناء أحبوا حضورها، فلا تعنيف لشخصهم الضعيفة، ولا ترهيب.

مرت الأيام بسرعة وهي تتهرب من مخاوفها، وكان المرضى من حولها يعتنون بها خفاء بلا إدراك بتجاوبهم لعلاجها ومرحها. تغيّرت مع طيّات الوقت رغم جبنها؛ نعم صبرا صبرا يا نفسي، سوف تشرق عليك الأحلام والآمال، صبرا فطريقك طويل وعزمك عظيم.

في إحدى جلساتها السرية مع مجنون المصحة الجامح، بينما كان الجو مناسبا، أزال مجنوننا قناع التمثيل، ولبس ثوب المنطقي المعتوه، وبدأ يسرد قصة حياته تجاوبا مع أسئلة رقيقة الكلام أمامه.

"كنت منهكا كل تلك السنوات، أسعى وراء الكماليات، انضباط وحس عال في التنظيم؛ مجد أنا وناجح، مسؤول إداري بامتياز، وهكذا في سكة الاستقامة بدأ يظهر الشذوذ من حولي، هل كنت المستقيم الوحيد؟ أم أنا المعوج وهم وجه التمام. طفح الكيل بي وثرت على القانون؛ فساد تحت الستار والبشر في الحضيض، وما أنا فاعل إلا الاقتياد بإمرتهم مثل كبش فداء يبتسم لكومة كلأ قدّمت له؛ كسرت مرآة المثالية - هذا أنا -. للعيش في منظومة الفوضى؛ لأكون شخصا قيوده في قاع الجحيم، ونفسه في حرية ونعيم، فأن أكون المجنون خير من أكون القاق المقتاد

كأهوك إلى ضريح السافلين". سردت فاصلة فاصلة، فلم أعد أتحمل تلك التفاهات، فقط أودّ نفسا نقيا غير متعفن بأفكارهم القذرة، لم أعد أريد أن أسمع شيئا، لم أعد أريد أن أرى شيئا، لم أعد أريد قول شيء.

- ختمت جلستي وأنا أتنفس الصعداء، فانزاح شتاء قلبي وزال. لم أتوقع منه كلّ هذا. إنّه عاقل بل إنّه مجنون عاقل، وبلا أدنى شك ليس هو أو هم من يحتاجون إلى علاج؛ بل أنا ونحن من يحتاجه لنجد ذواتنا، ليزول ثوب الريبة عن أنفسنا، وأدرك أنّ التمثيل كان عبثا والانصياع كان شماتة.

وفي الجلسة التالية، أكمل المجنون الجامح كلامه: "لم يكن العالم أبدا يوما مثاليا، لطالما كنا ومازلنا في غابة بخلفيات مختلفة فقط، وبفترات زمنية مخالفة لنا، نحن البشر هم الوحش، وأضعفنا ينصاع لجبار الشامة فينا. ماذا نكون حقا؟ نحن تحكمنا سياسة المجون، ونقتات من اقتصاد التقتير، ونتعلم على منهاج "كن أبلها تسلم"، والأحلام للفقراء والمساكين والعاملين على توزيعها، أمّا المرضى فالقبور مجانية، والأكفان متوفرة في الأسواق، الأرحام فصلت والأخوة شتتت تحت شعار تحرر من قيود القبلية وادخل في العصور الجاهلية بالأحرى الذهبية. أصبح العالم مسرحا والمخرج أياد خارجية، ونحن دمى متحركة على خشبة المسرح، مقيدين بخيوط رفيعة نعجز عن رؤيتها، نطلق عليها اسم القدر خشية مواجهة أمر ضعفنا وانقيادنا للمجهول، رغم علمنا أنّها مجرد جدران سجن بلا سقف في جرف عميق. مللت الحذر، كرهت نفسي الضعيفة

الجبانة، لذا بدأت أعبث على أطراف الهاوية من دون الالتفات للجوانب، حيث الجنة الملعونة بمرتبة عبد ذليل. خذ من اللذات ما شئت، لكن ادفع كرامتك للفاسقين، أليس الثمن كثير؟ ليس كلّ منهار تحت جاذبية المشاكل في هبالة، فالنفوس تختنق لكن لا تتوقف عن التنفس، فإذا كان الدم الذي يسري في عروقي يضخ من قلب أحب الحرية، فبالتأكيد لن يكون خاضعا لمخلوق. لذا سوف أسقي به بساتين أحلامي وسأولد مؤمن، فأمطر ريش طير حر".

نقطة أفاضت البحر، وهب على اليابسة طوفان، شعلة توهجت وامتدّ لهيبها نارا في الهشيم. أنا فاعل والفاعل مرفوع يأبى الكسر، ولدت عظيما لأعيش عزيز النفس.

- حينها فقط أنا الخنوعة أدركت الخلل، هو أنّه لا أحد سوف يقودني إلى الأسفل – تلك الكلمات ووقعها كوقع نيزك في أرض جرداء ممهدة لعصر جديد – كل تلك المشاعر التافهة جعلتني في عزلة، لا أحد سوف ألومه، فأنا الضعيفة.

أطلقت الطبيبة ضحكة معتوهة، وقفت وفكت أزرار مئزرها، وأزالت رابط جديلتها، وألحقت حذاءها رميا للزاوية، أبعدت الكرسي وأزالت نظاراتها من وجهها وها هي تتقدم وتخطو نحو الباب كفراشة تعدت مرحلة التطور، وها هي تشق طريقها خارج شرنقة نحو نور السنا، توقفت للوهلة وأطربت مسامعي بحروف: "سيرون الجنون على أصوله؛ فقد حان وقت اللعب،لا داعي لأن تلتزموا الصمت بعد الآن.

ابتسمت كالأبله لها: أهلا بك في عالمنا.

خطت الرواق بهمة، من باب لآخر تفكّ عنهم العزلة، تفتح عليهم الأبواب فينصاع لها المجانين كساحر المزمار العجيب، أصيب بالذعر الأطباء، وفقدوا زمام السيطرة. كانوا يتقدمون حولها كالفراش وهي زهرة البستان. بهجة على وجه المجانين تشق الشفة على الأطراف، أزالوا مئزر التقيّد، ورموا أدوات الإلهاء، إنّهم أعقل من أن يحجزوا في جدران سوداء، أرض متربعة على أطراف النظر فصيحة الجنان، ولم الضيق؟ وما الضيق إلا ضيق القلوب. دعوا أصواتكم تسمعها الرياح، دعوا الشمس تمدكم الحنان المخلوع، تحرّروا وأفيضوا بالبحر وما فيه، ودعوه يرويكم من مكبوتات أسكتتكم.

بكاء، صراخ، ضحك، هرج ومرج في ذاتهم.

تفاهات، تفاهات... يرددونها بأفواه مفتوحة، أُكرِهوا واغتصبت أرواحهم، وها هي تنفتح الجراح وتلتئم.

شهدت ساحة المشفى على العجاب، وفي زمن ليس بقصير، أطباء المشفى بأوجه مدهوشة. نعم تمرد الرعية على الراعي، فما نفع علاجهم وما زادهم إلا سوء، تحرروا وتفتحوا كانفجار فجر جديد.

أمّا المجنون الجامح واقف في وسط الساحة يذرف الدموع، فما العيب أن يبكي الرجال فخرا بنساء صنعن المعجزات.

لاحقا رفعت قضية على الطبيبة المجنونة بحجة خرق سلطة المشفى، ووضع صحة المرضى في حافة الانهيار، فحكم عليها بغرامة نقدية معتبرة،

وتجريدها من كل حق لها في ممارسة الطب النفسي، وأبطلت كلّ شهاداتها، وها هي الآن ماكثة في بيت ريفي على أطراف المدينة، في قرية بسيطة، تمارس نشاطاتها على هواها، وتقتات من بستان بسيط تعتني به، وتشغل وقتها في رعاية كلاب وقطط وحمام القرية.

واقفة في مفترق طرق القرية بملابس فضفاضة مبهرجة الألوان كقلبها الذي أفاضها، شعرها يحلق في مدى محيطها مع الرياح، وأجنحة الحمام، كانت مبتهجة سعيدة، نعم... وجدت ذاتها مستقلة، أصبحت هي؛ قوية لا تهزها الرياح؛ تلجأ مراهقات القرية ويستشرنها في مشاكلهن النفسية، وكانت لهن خير ناصح وأخت؛ أما مرضاها فقد خرجوا من المشفى وواصلوا حياتهم، وكل في مجاله غير ذاته، وتمرد على محيطه للأفضل، وكان غالبا ما يزور بعضهم المشفى ليسألوا عنها لكن لا خبر يشفي غليلهم، أحبوها وأرادوا أن يكرموها لكن عجزوا عن ذلك، فلجأوا إلى تقفي آثارها بوضع مصحات للعلاجات النفسية عن طريق إفراغ المكبوتات في أشكال فنية، منها فنون الرياضة وتوفير مستمع وداعم محلل لمشاكلهم.

بين نفر الحمام الذي طار بعيدا بأجنحة الحرية؛ تأمّلت من أفسد عليها سلامها. توهجت بسمة هيام على شفتيه وردد بصوت خافت وصل لمسامعها الرقيقة: "قلبي يحتاج لعلاجك".

لتجيب برقة: هل أخذت موعدا مسبقا أيّها المجنون.

منذ متى كان الجنون داء؛ فخيرة الناس المجانين.

ملاك الجليد

هي البرودة التي تذيب الجليد..

هي الشعلة التي تحيي الصقيع..

هي اليأس بعده أمل..

فاتنة الجليد هي هنا، هي هناك، فاتنة العروض ستدهش الجمهور، أفواه مفتوحة وعيون مترقبة، أنفاس تلهث من شدة الحماس، حركاتها الأجمل في العروض فكيف لا، فهي محبوبة الحشود. من السماء نزلت وكأنّها ملاك، أهذا وهم أم هي حقا تطفو كفَرَاشٍ. وقف الجمهور من هول المشهد، لتتلقى بعدها أحر التصفيق.

وقف مدربها في زاوية من الحلبة المتجمدة يراقب الجميع، ابتسم بافتتان مرددا: أهل... ستقوم بها من جديد...! هي ستفعلها حركتها المشهورة، شقلبتها العظيمة كما تسميها.

أخذت نفسا عميقا وها هي تفعلها والجمهور على أشده يصفق، لكن للقدر كلمة الحسم، حركة مثالية لكن بهفوة جوفاء، أوقعت الملاك من السماء، لتكون الوقعة الكبرى لمحبيها ومعجبيها.

ها هي على الأرض تتخبط كعروس بحر تناجي أنفاس الحياة، وهي من حولها لا تشعر إلا بطبطبة، ليهمس ثغرها: ما هذا الإزعاج!؟

تقدم المدرب بسخط يصرخ في الأرجاء: انتهى العرض... اخلوا المكان.

غمر صغيرته وهو يناجيها: هيا أنجلا ابقي معنا لا تفقدي وعيك... ليس الآن! استفيقي ملاكي، لن أتذمر من مقالبك منذ الآن.

أدركت ما يريده الحسناء، لكنّ صوته وصورته في الأفق تزول.

دخل فتى بملابس الاستعراض الرياضية المبهرجة من كثرة الألوان واللمعان، فهو متدرب جديد دموعه أفسدت كل تلك البهرجة الجميلة: سيدي المدرب رايان الإسعاف أمام القاعة.

أخذ بين يديه الفتية النائمة وهرول لإنقاذها بسرعة.

مرت الساعات والكل على أعصابه مشدود، ليخرج الطبيب، فهجم عليه كلّ الصحفيون ليسمعوا همساته: من المسؤول عن المصابة؟!

ليدخل بطلته الرياضية الفخمة، رفع قبعته وقال: أنا، سيدي الدكتور ما حالها؟ - هدوء يعكس كل تلك الصراعات في جوفه -

رد عليه الطبيب: اتبعني لمكتبي فلي حديث معك.

ألقى المدرب نظرة خاطفة على متدربه الصغير فهو أكثر الناس إعجابا بها وتعلقا، فابتسم باعثا فيه الهدوء وكأنّه يقول: لا تقلق هي قوية، مشاغبتنا ستعود سالمة.

دخل المدرب بنوع من التجهم لمكتب الطبيب، كافحا بما لديه، لكن على من يمزح فهي همه الوحيد.

كسر هدوءه الطبيب: اجلس سيد رايان باعتبارك مدربها والمسؤول عنها، فأنا سأكون صريحا معك - هدوء مريب- الآنسة أنجلا لن تمشي من جديد!

وقف رايان من هول الصدمة، فصغيرته لن تتقبّل الأمر: "مستحيل، لا أريد سماع هذا مجددا، هي ستكون بخير هي... "، لينهار باكيا على ملاكه مقطوعة الجناح.

تكلّم الطبيب بنوع من القنوط: لكن هناك أمل.

انتصب على رجليه وهبّ لمكتب الطبيب: ما هو؟ أخبرني، سأفعل المستحيل لأجلها.

- إصابتها على مستوى النخاع الشوكي، احتمالية نجاحها قليلة جدا، بل ضئيلة وما بقي يعتمد على المريض وإصراره.

- إذن ما قرارك سيد رايان؟!

أخذ نفسا عميقا يتذكر خطواتها على الجليد، تلك الحرية التي تستقيها مع كلّ حركة، حماسها، ابتسامها وهي تحمس الجمهور وكأنّها ولدت لترسم الإعجاب والانبهار، لترمي بريقا يشع حبورا.

- باعتباري المسؤول عليها وهي تحت رعايتي، فلن أتهاون في توفير كل سبب لعلاجها، قم بالعملية، أنا أثق بها، سوف تتعافى لن تستسلم، أنا أؤمن بها.

ابتسم الدكتور بنوع من الإعجاب: حسنا اعتمد علي سأبذل ما بوسعي لكي أجعل هذا الملاك يقف من جديد، وسأتشرف برؤيتها تذيب الجليد إبداعا.

تصفيق حولها في المدرجات لكنّها فارغة موحشة مقفرة، سلط الضوء على وسط الحلبة لتظهر تلك الملاك بملابس العرض البالية، زال بريقها، اندثر شعاعها. ملاك من رماد، بأجنحة مهشمة، تقدم نحوها بخطوات

بطيئة يتأمّلها. ابتسمت له من موقعها والدموع تتسابق على خدودها: لما أنا أبكي؟ أخبرني هلا شرحت لي؟ لما أنا أشعر أني خنت الجميع؟ أخبرني أيّها المدرب... أخبرني...

وصوتها يعلو ويعلو ودموعها ملجأ لتلك الأنفاس المخنوقة.

- لما تبتسم كالأبله؟ أجب... أنا... أنا... أشعر بالعجز.

انحنى نحوها وأزال قناع وجهه ليرد بإيقاع يحمل الخذلان في كل حرف: أنت مثيرة للشفقة، خنت ثقتي.

هشمت روحها.

أسقط القناع أرضا، لتليها أصوات أقنعة منكسرة وشظاياها ترسل أمواج اليأس.

- لا أدري كيف كنت أضع ثقتي في دُونٍ مثلك، ألحقت العار على كلّ تاريخ التزلج، أنت وسمة خذلان.

لتليها ضحكات مستفزة.

- شعور ينتابك فقط وكأنك عشت معه منذ الأزل، فقط تتنفس من عفن، فشلك كقيد في غرفة سوداء، كلّ ما تعرفه اختفى كالسراب.

جمعت أشلاء أجنحتها، وردت عليه بقنوط: سوف أخيطها، ألصقها، سأصلحها من جديد، فقط انظر إليّ أنا فقط. سأجعل الجميع ينظر لأجنحتي مجددا، وسأبهرهم، فقط أنا لم أقصد السقوط، فقط سأطير من جديد، وسيحبني الجميع، أعدك انظر هنا.

نظر باحتقار إلى أجنحتها التي تحتضنها بين ذراعيها.

ليتفوه بما قصم كبرياءها لنصفين: لا أحد يحتاج أو حتى ينظر لملاك معاق.

ليتلاشى النور من حولها على وتيرة، يتمادى حولها الظلام. بين إعصار تلت عليها نتفات الرماد ليبلى بها حلم كان يبابًا، مقصوفة الجناح، غائرة العينين، خاوية من ثرثرة الحبور أو كلمات السرور.

فتحت عينيها وتحسست العالم حولها. غرفة بأربعة جدران، أو قفصها الأبيض الذي سلب أنفاسها الحرة. تأملت السقف لمدة ورددت: لما الثلج أبيض رايان؟

ابتسم بعد أن أسند رأسه على كرسيه: ربما لم يجد اللون الذي يناسبه.

هزت رأسها: جوابك غير مقنع.

جاورها بوقوفه الثابت: إذن سأبحث عن جواب مقنع. استريحي، سنتحدّث لاحقا.

خرج من غرفتها يقاوم يأسه العقيم. أما هي فما كانت لها إلا أن تفتح سد عينيها للتضافر على خديها ساقية من يأس، فكيف لشخص عاجز أن يحلم بالطيران؟ كيف لحمامة أن تنظر للسماء وهي تحمل عار العجز؟ نعم، هي تدرك عجزها، تدرك ما ألحقته بنفسها، كلّ تلك الهمسات، كلّ تلك الأصوات، تحوم على فشلها، على ضعفها، إنّها محطمة ومهشمة.

وداعا لك، أنا تلك التي وقفت شامخة، تلك التي لم تهزها لا عثرة ولا نكسة. وداعا للتي تنحني خطأ لتصنع منه فنا، وداعا لأنا التي فاضت بها

ساحات الرقص، فأفسحت لها نفس العظمة. وداعا لتلك التي تطبق جفنيها دون إدراك مداعبةً الأثير بألوان قلب يعشق خطواته. لمسة رقيقة تقبل الأرض بشقاوة، دورة حرة كالحسناء الراقصة، ولفة ناعمة كندفة جليد أرسلت من السماء. وداعا لتلك التي تسبح في الفضاء كعروس بحر تراقص الأمواج. ساحرة هي على نغمات كلاسيكية تحاكي فخامة وجلال زمن غابر، وكأنّ لموزارت، باخ، بتهوفن يد في سبر إيقاعاتها على الجليد، تحييهم وهم بآلاتهم من حولها يفتحون الجوقة وهي المايسترو الذي ينسج نظامها. بديعة هي على الصقيع، حسناء هي برقصها على الجليد.

لم يكن سهلا عليها تقبل الموضوع، فاضت عليه كالمحيط، تعلو ببكائها وتنوح، حاولت الشرح والتوضيح أنّ الأمر يتعلّق بها فقط، عليها قبول الواقع والصراع، لكن كيف لعاجز أن تشرح له كيف يصمد وهو يرفض الضياء، والإيمان بنفسه. يعتقد أنّ كلّ شيء توقف عنده، ولن يتحرك شبرا. قال لنفسه: أنا محطم فما حاجتي للتعلق بالسراب.

يقال لا ظلام بعد الاعتقاد بأنّك لن تتحطم، لكن ليس لمن يعتقد أنّ القدر لن يتغيّر.

بثّ فيها أمل الشفاء بعد أن أجبرها غصبا بإجراء العملية الجراحية، لكن ما كانت عليه قبل العملية ليس بشيء يسرد أو يوصف، سجينة ذاتها، قنوطة من نفسها، سوداء بأحلامها، بائسة هي بروح مهشمة منعت عنها قطرة أمل.

تردد عليها الفتى الحالم، لكن كيف للأحلام أن تولد في أراضٍ قفار، يجدها نائمة أو لنقل تزعم ذلك. يسرد أحلامه وهي محورها، عشق خطواتها وأراد محاكاتها. رفضه أصدقاءه؛ لأنّه حالم سخيف ليرقص على الجليد كلعبة فتيات. يرسم قصته يوميا لها كيف كان يبكي بخفاء؛ لأنّه طفل سخيف، ولكن عندما يتذكرها تداعب الجليد ينسى وحدته ويقلّد حركاتها في باحة منزله. ليس عيبا أن يحلم ولد بالرقص على الجليد بدل لعب كرة القدم هذا ما كان يردد وهو يبكي، قال لها برقة: "أتعرفين يهزؤون بي في الخفاء حيث أجلس وأراقب ضحكهم عليّ وهم يقلدون حلمي باستهتار وتهريج". يتخلّل كلامه صمت عميق ليقف بعدها ويبتسم بهدوء: "أتعرفين متى قررت أن أكون أفضل منك، أن أتحداك أن أكون الأفضل! أعرف أنّ الأمر لا يهمّك، لكن أتذكر ذلك جيدا، كنت مندهشا من حركاتك وسعيد كطير حر، سألك المعلق ما هو التالي بعد المعجزة التي أظهرتها، رفعت يدك عاليا وقلتها بفخر: «لم أولد فقط لأرقص على الجليد، بل لأصنع تاريخي». أتعرفين تمنيت فقط حينها أن أرى نفسي في نفس المكان، وأردد ما قلته بفخر تماما كما فعلتها، حينها عندما رأيتك في أعماقي، أعرف أنّنا ولدنا لكي نصنع التاريخ.

- سحقا كلّ هذا لم يعد له معنى بالنسبة لك أليس كذلك؟!

غادر الغرفة وتركها حبيسة عالمها البالي.

تكوّرت على نفسها وأغلقت جفنيها بثقل، فالدموع ينابيع أسى فاضت أشجانا. زادت أيامها سوادا، ترفض العلاج الفيزيائي، حاولوا، حاول معها: لكن كمن يدفع جبلا لم يتزعزع منها شبر، رغم ذلك كان لمدربها العناد.

طريحة الفراش يدخل عليها بين تحفيزها، وتأنيبها على ضعفها، لكن يخرج خالي الوفاض، حتى الحجر سيلين من عناده، لكن هي كانت أقصى منه، متلبدة المشاعر، هي صعبة المراس. بين يأسها وتعاطيها للمسكنات، كان النوم ملجأها الوحيد، وهذا دفعها للانحدار، للزوال إلى قاع، لتسقط بذلك آخر بتلة نور من زهرة الأمل.

خرجت من المشفى بعد أن كادت أن تحطمه، صراخ لمنعهم لها وإجبارها على العلاج. فقط هي رفضت ذلك لما لا يفهمون؟ كانت واضحة في كلامها، طلبت فقط أن يفرنقعوا من وجهها، لا تريد، لا علاجهم ولا وجودهم. تعفّن مزاجها ساء تصرّفها، انحلّ خلقها كمن يزيد سواد الشتاء نواحا، فقط عكرة حد الصميم.

حسم أمره، سوف يتحدث معها رغم الاحترام الذي يحمله نحوها، رغم تقديسه لها إعجابا، لكن سيكون شجاع ويواجهها، لكن بدخوله تبدد كلّ ذلك، وجدها على غير العادة منظمة، منضبطة، مرتبة الهندام. اندهش، حار، كاد أن يتصلب، هل هذا هو وقت تغيّرها؟ هل سوف توافق على العلاج، سوف تعود كما كانت؟ ما كاد يفعلها حتى أوقفته: لا تتحمّس يا فتى؛ ليس كل تغيّر يعني للأفضل، لا تتعلق بأحلام الأطفال، فهذا العالم ليس بعالم الخيال، فاليوم ستكون في القمة، وغدا في القاع، لما إذن

تكافح على فشل آجل أم عاجل. كن فتى مطيعا، وعد لقريتك البائسة، فهنا قد انتهى كلّ شيء.

تمرّد الصبي: أطبقِ فمكِ اللعين...

شدّ على قبضته ليكتفي بابتسامة بلهاء، غاصت في دموعه تخلّلها صمت للحظات.

- إن عجزت عن مواصلة أحلامك، فلا تحرم غيرك منها.

غادر الغرفة يسارع قلبه الذي يناجي نفسه الضالة، أما هي فكانت غارقة في ذكرى قديمة، هذه اللحظة التي تمرد بها، هي نفسها حين تمردت على من سلبوها أنفاس الحرية، من جعلوا من أحلامها متراكمة رمادا. ابتسمت لتردد باستهتار : "كنت سخيفة".

نقلت من المشفى بالأيام معدودة بعد تلك الحادثة، لم يزرها تساءلت على ذلك في صميمها، لكن سرعان ما أهملت الفكرة.

وجهت كلامها له منذ زمن ولم تفعل ذلك، رايان توجه إلى مركز التدريب.

ليجيب: ألم أعد مدربك؟ (استفهم طريقة كلامها)

لتردّ: أريد أخذ أشياء. يمكن لك أن تبحث عن بائس جديد تعتني به، انتهى وقتي هنا.

أراد قول أمر لكن اكتفى بالتزام الصمت، وهي عاودت نظرها إلى الفراغ.

دخلوا المركز بتجهم، والأخرى بضياع فلكلّ زاوية هنا قصة جميلة لها، تخلت عنها في مزبلة الإحباط، دفع المدرب كرسيها المتحرك إلى غرفتها

المقابلة لساحة العرض لجناح المتمرسين؛ ليقول: سأدخل وأجلب أغراضك، لن أطول عليك.

لتُومِئ له بالموافقة، لبرهة انتابها الفضول، تقدمت بكرسيها المتحرك لذلك الباب غير الموصد لتلقي نظرة على الحلبة التي احتضنت تألقها. لتتحرر للحظات من نفسها، نعم أبدع بتقليد حركاتها بتفوق، بكلّ حركة، وكأنّه لا يرقص بل يصنع الرقص، ويتنفس من حركاته. لأولّ مرة تشعر بما يراه الجمهور، تلك الرغبة بالمزيد، تلك الروح المتقدة التي ترغب بالمزيد، وتتعطش لتوهج، تلك الرغبة بالتقدم والتحرر، حيث ينفصل الوجود من اللاوجود حيث الحدود في نظرهم بلا حدود. فقط شيء يقول بداخلها: "لو أمكنني أن أفعل المثل أو أعمق من ذلك. سأكون يوما ما متألقة مثلهُ". فقط تذكرت هنا كلّ تلك الوجوه التي كانت تحيطها، وتتشاطر معها ذلك الوقت الذهبي الذي خلدته بخطواتها على الصقيع.

هنا شعرت أنّها خرجت من نفق الوهم، لتندفع للمخرج وتتنفس هواء اللهفة للإبداع والتحرر من قيود الخنوع، وتستشعر جاذبية النجاح الخالد. ذلك التصفيق، كلّ ذلك التصفير وصوت الهتافات، ولمعة الإعجاب والذهول، وهنا العالم لا يتمحور عليها بل على ما ستصنعه للعالم، وهي لا تصنع بل تخط خطواتها وتنسجها على الجليد فتخلق بسمة للعالم، وبذلك تراجعت بهدوء وكأنّه لم يكن لها وجود.

أكمل تدريبه، لكن هناك شيء ناقص، نظر نحو المدرجات؛ إنّها فارغة؛ للوهلة تخيلّ الصبي وجودها، لكن على من سيضحك، فلا وجود لشخص فقد وجوده. فأكمل بذلك ضياعه بين خطوات حفظها، بل يمكن أن يعمى ولن يخطئ بأي حركة؛ لأنّها خلقت به الحياة.

دفع بالكرسي للأمام لينطق مكسرا حاجز الصمت: بحثت عن جواب لسؤالك! وفكرت مليا والجواب: الثلج لا يعرف الألوان؛ أعني أنّه لم يفهم ما هي الألوان، أو لم يتعلمها من أصله.

ألقت عليه نظرة بلهاء لتضمن جوابها في كلمات: جوابك غير منطقي، لكن شكرا على المحاولة.

لاحظ طيف ابتسامة دافئة سرعان ما تلاشت، اعتقد أنّها مجرد تخيل أو وهم فكيف لها ذلك وهي خاضعة لسلطان الاستسلام بمشورة حاشيته اليأس، القنوط والخذلان.

اختفت كالسراب، مات نجمها ونسيها الدهر لا يعلم أحد أين هي، فحتى أقرب الناس جهل حالها.

مرت سنوات، ها هو النجم الصاعد يلاعب الصقيع، صاحب الرقص المتمرد، نعم تحول من صبي بكاء إلى شاب متمرد، ملقب بمحطم الجاذبية، نعم هو لا يأبه بالأرض وقوانينها، فقط يدور وينحني ليتحرّر معانقا الحياة، فهو فقط يصبو لذلك البريق.

يحادث الصحفيين عن آفاق متدربه ليختم كلامه: "هو تحرّر من الأرض وقيودها لذا لا حاجة له لي، فأنا هنا متفرج وداعم لا أكثر، هو وجد..."،

فقط في هذه اللحظة الزمن توقف. أعلن المعلق بقوله جملة أغلقت أفواه الحضور: "بعد كلّ هذا الوقت عاد ملاك الجليد ليلهب الصقيع". إنّه لا يمزح هي الوحيدة التي تحمل لقب كهذا لقب يناقض إبداعها.

شدت الألسنة، عجز عن الكلام ويا له من موقف لا يحسد عليه، قالها وهو يرتعش: "عاد ملاكي".

انقبض قلبه ليلقي نظرة لمدربه ليلتقط سمعه تلك الكلمات: "هذا غير معقول"، انتصب واندفع لحافة الحلبة، وهنا عم الظلام المحيط ليسلط عليها، ما زاد وجودها حضورا.

هنا وهناك كما لم تكن من قبل؛ تلك الموسيقى الكلاسيكية لم تناسبها، بل خلقت لها. كانت فاتنة الحركات تلك، حية بل تنبض حياة. لفة... لفتان وهنا صنعت من بذرة العار التي لحقت بها وهشمتها أشلاء أشلاء... جمالا أملا سموا وجلالا، نعم وقف الجميع ليصفق، طمأنها: نجحت بل جعلتها أعظم من أن تتكون مجرد حركة لراقصة جليد، فقط كان يجب أن تدشّن على لوح الأساطير ملاكا بجناحيها هبط من السماء على الأرض بسلام.

صمت حلو، ثم هتاف، هنا وفقط قالها بكلّ فخر: عادت ملاكي.

ابتسم بشموخ مزيلا تلك الدموع. هنا اندفع الصبي أو لنقل الشاب نحوها؛ ابتسمت ويا لها من ابتسامة لتردد: كيف وجدت قريتك البائسة؟

أجاب بثقة: تحررت منها، فأنا من كان بائسا.

تقدم المدرب نحوها: أهلا بعودتك أنجلا.

خطوتان وكانت أمامها، قالتها: وجدت جوابا على السؤال!

أجاب: حقا... وما هو؟

قالتها وهي فخورة: لأنّه اللون الوحيد الذي يميزه، إنّه مميّز؛ لأنّه ثلج أبيض لا غير. وجد ليكون كذلك. كما وجدت أنا لألهب الجليد.

وهي بكلّ ما فيها تحدٍ يتأجج طموحا.

ابتسم لها، وهي أخذت بيد الفتى لوسط الحلبة، وهنا يشهد ذلك الصقيع عليهما. "لا، عليك قولها وحدك أنا معك ولدت لتصنع مجدك". رفعت يدها وهي مشددة قبضتها على كف الفتى ليعلو حلمها على مسامع الجمهور: "ولدنا لنصنع التاريخ". تصفير، تصفيق، وكلّ هذا مزين بعبق الحبور، وتجلى حوله طيف زاهي، وكأنّه موسم الربيع الذي فتح أبواب الحياة.

نزل الستار، ورفعت الأقلام، وختم الكلام واستمرت الأحلامّ، وهذه هي الأحوال التي دونت في أسطر وتم ذلك بسلام. ليكن في علمكم أنّها قصة من خيال، لكن لم تأتِ من سراب، فبطلة قصتنا شخص عظيم، وما تحملته ليس قليلا، وعزمها كان كبيرا؛ وما قلته لم يكن يسيرا، وخاتمة الكلام ليس أنا أو أنت من سيهان، بل من دفعنا للوراء، ولا تدع للحزن والقنوط بابا، وهو ليس بعقار من حكيم أو كلمات من ساحر عجيب، بل فقط يحتاج مقدارا من عزم لا يُهزُّ، وحفنة إيمان عظيم، ورشة من بسمة أمل جميل في صحن يحمل حلما كبيرا.

لكن انتبه، لا تزد المقادير وإلا تحوّل لغرور ولن تكون حينها إلا شخصا حقيرا . لكلّ كلام تمام، وإلى هنا تمّ الكلام.

يوم مع حفار القبور

بين الأموات أدرك حقيقتي..
أنا مجرد كائن كان ثم فان..

وجهه مترب يترنح يمنة ويسرى، يومهُ شاقُ، نَبْشٌ، نَبْش؛ ابتسم بتهكم على فكرة برزت كنتوء صخر في ذهنه:

- للأسف! منازل الجثث ليست صناديق كنوز.

أزال قبعته الصوفية البالية متكئا على أحد الشهود.

أغمضت عيناي مرددا ترنيمة عالقة في ذهني، نفس خلف نفس انتابتني رغبة ملحة للتمدد في أحد زوايا هذه الأضرحة، قاومت تلك الرغبة، مفكرا في مدى تفاهة تواجدي هنا بين هذه القبور المزينة بأشكال ومواكب، أقسم إنّ كل من دفن تحتها لا يأبه بشِبْر منها. أخذت خطواتي أجرّها متمايلا بين أروقة القبور بهدوء مسالم، وعلى عتبة باب المقبرة ألقيت آخر سلام لي في هذا اليوم، فحرارة الشمس الهاوية على هذه المنازل المنسية، حَوَّلت هذه التربة إلى تجسيد شبه حقيقي لعالم خاوٍ جاف، في هذه الرقعة الميتة أشك بوجود الجاذبية.

يتوقف في هذه الأرض حتى الوقت لن تعرف زوالك من ظهيرتك، أتوه في بعض الأحيان بحثا عن ظِلي فلا أجد من حولي إلا أنفاسا تلهث.

ودعت هذا اليوم المنعدم الذي يتكرر بفراغه وطوله وعرض ساعاته، يمرّ يومي على خط عريض فارغ يحوي بعض الحركة الضرورية، من تنظيفي لزوايا المقبرة، ونقش نباتات الأرصفة التي تحيط القبور، وفي

بعض الأحيان ألتهي برسم ساقية بسيطة لتسهيل مرور المياه إلى جذورها. اكتفيت من عدّ القبور المتزايدة كلّ مرّة، كنت سابقا أحمل نوعا من الرغبة في عدّها وفرز الجديدة منها، أو تحديد رقع صالحة للدفن مبتعدا عن المنحدرات والمناطق الصخرية الوعرة. كان الأمر أشبه بهواية أقضي بها على دقات الوقت التي لا تكفّ عن التمدد والاتساع. يمكن القول أنّ العالم متوقف في هذا الحيز المحاط بأسوار.

رجل متهكم في أواخر عقده الرابع، وصف بسيط يناسب حفّار القبور، يستمع لأسرار الموتى، يحمل رضا تاما على حياته.

يوم كسابقه، أعمل لزاد اليوم، وغدا لربما سأكون بينهم فارغ الوفاض، طموحي لا يتجاوز قمة أنفي المدبب. أستفتح عملي بتحيتي الصباحية التي ألقيها عليهم بوجه طري يحمل ندى النشاط، أقف أمام بوابة المقبرة لثوان معدودة أتأمل تلاحم القبور المصطفة جنبا إلى جنب مجاورة لبعضها، فتدفعني الرياح إلى حيز العدم وأدخل بذلك نطاق اللاحياة حيث السلام تجده تحت الأرض وفوق القبور.

تتسابق الأيام كخيول جامحة خارج حدود هذه الأسوار، غادر الجميع بعد آخر كومة تراب رمتها المجرفة. اتجهت نحو غرفة احتوتها هذه المقبرة، غرفة مربعة الشكل، بجدران بيضاء باهتة بداخلها، أخذت بيد المجرفة وبيد أخرى سددت باب الغرفة بضغط أصدر صوتا اعتاده الأموات وهم في أسرتهم المتربة. أعلمهم بهذا الصوت على تواجدي، وأنّه

آن الأوان لأسوي الأرض من حولهم، أو أسق ما نبت في شقوق قبورهم من نباتات وورد.

مرّ اليوم على غرار عادته، مرّ ظليلا مريحا، سلامه اختلف على السلام الذي كنت أشاطره سكان هذه الأرض. توجهت إلى القبر الفتي، دست حول أرضه فكانت طرية خصبة، أخذت من التربة حفنة أتحسسها فكانت ندية، قبر فتيٌ انضم إلى هذا المجمع السكني للموتى. انحنيت معدلا فراشه المترّب، ملقيا بكلمات الترحيب المعتادة بوجه بشوش منشرح.

_ أهلا بك بيننا، أعرفك على جيرانك الموتى المنسيون، أتمنى أن تجد راحتك بينهم.

هبّ نسيم يحمل همسات ترحيب رقيقة، حان وقت الحديث!؟ توجهت صوب كرسيي الذي اتخذ مكانه تحت ظل أحد جدران المقبرة بذلك ثبت الكرسي بجانب القبر الفتي، وجلست جواره، أخرجت دفترا ذو أوراق مصفرة ومتسخ الغلاف، طويت بعض الأوراق، ورددت بصوت واضح يحوي نبرات حزينة: الميت 130، المدفون في 13\4\....، هل تسمعني؟

صوت خافت أشبه بصفير الرياح، كان يصدر بإيقاع فارغ يتردّد بين شقوق الأرض. انتابتني رهبة تلتها رغبة في احتضان جسدي الذي يهتزّ بوتيرة متزايدة، لكن بعد أن التقطت مسامعي حروفا مبهمة، بدأت أستوعب جوارحي، وألم أشلائي مرددا: "علي أن أعتاد... علي أن أعتاد... " وفي تلك الأثناء اتضحت حروف بعيدة المدى، أعادتني لثبات وعيي: "أنا

الجثة 130، من الجانب الآخر، دون على السطور قصتي، كان من المفروض أن أتعلّم فيها بعض الحماقات، وأجرّب بعض المحرمات، ثم أهتدي بما أملك من وعي لمستقبل مجهول أتعرّض فيه للّوم والنفور والتهميش، وفيه بعض النجاحات والثواني السعيدة سريعة المرور، أقع فيه بحب وأجرّب طعم الخذلان، أن أتعب في الكدّ لأرْضِي غروري وأسعى نحو أيام رتيبة آخذ بها أنفاسا متهالكة أعدّ فيها الثواني، - تخلّل كلامه سكوت غريب، وكأنّه يأخذ نفس الشقاء بعد يوم جاهد فيها الحياة - ثم أتخلى عن وجودي، هكذا كان من المفروض أن تبدو الأمور، لكن بيّن تلك الأمور الكثيرة، حدث ما هو ليس في الحسبان، شاب طائش يقود حياته بتهور إلى نقطة العدم، انزاح مسارهُ عن الصراط المستقيم، اصطدمت مع نداء الموت، كنت لأعيش لحظات الطيش تلك حيث أندم وأتحسر، حيث أنحرف وأضيع، أتألم وأبكي، أبحث عن نفسي، أضحي من أجلها، وأصرخ في الطريق أخبر العالم بوجودي، أنتشي بانتصاراتي التافهة، فأقيم لها مهرجانات صاخبة، أضواء خافتة تمر بسرعة حولي، ضجيج مشَوشٌ حولي محمل على سحاب أبيض يشق رواقا باهتا بسرعة، استشعرها جسدي بهدوء، ذلك الرّنين المزعج كان يفسد ذروة هدوئي، فقط دعوني ألقي سلامي الأخير، فقط دعوني أنام بسلام.

توقف حفّار القبور من تدوين كلمات الجثة، وقال بصوته المهزوز: أيتّها الجثة هل من كلمة أخيرة قبل الرحيل؟

ساد سكون للحظات وكأنه سكون شجرة جذورها متغلغلة أعمق من أن تزال، فوجودها حقيقة أبدية خورت الأرض من حولها، فبرز خشب جذورها التالفة، وكأنّها تقول: "كنت هنا وسأظلّ أعد أرواح الموتى، فأنا ظلال سماء على الأرض، أحْضُرُ بصَمْتِي".

سكون لحظات غمر المكان، انبعث صوت مبهم من جديد، جعل الحفّار ينصت بإصرار أكبر، لكنّ صفير الرياح حال دون ذلك، وكأنّه أصبح للجثة لغة أخرى، لغة لا يفهمها الأحياء يبوح بها الموتى بأسرارهم العظيمة وذكرياتهم الغابرة.

بدأ وقت الجثة ينفذ، بدأ العد التنازلي، وأصبحت الحروف هوجاء ضعيفة، قبض الحفار أنفاسه للحظات عدها في ثوان قليلة، وها هو يتصل بالواقع مجددا ويقول: أيّتها الجثة 130 هل من كلمة أخيرة؟ أيّتها الجثة اتركي رسالتك الأخيرة للعالم وارحلي بسلام.

عاد صوت الجثة متذبذبًا به رجفة أسى: أنا الجثة 130، دَوِّنْ:

"سلام لك أُمَاهُ، فروحي تموت فيك وتحيى بهواك، فكوني يا بلسم الحياة قمرا على لحدي، وزهرا فتيا ينعش تراب قبري...

عذرا أَبَتَاه، لم أكن الرجل الذي ابتغيته، وطيشي أشقاك. لم أكن السند الذي يرضيك، سماح منك يا أَبَتاه، سماح...

لكم إخوتي وأصحابي، ذكرياتي، احفظوا وجودي واذكروا عني ما يريح النفوس...

أيّها العالم الشقي انقشعت سحابتي، وما أنا في هذا الكون المعدوم إلا رقما آخر، أصبح في طيّ النسيان،الجثة 130، تَرَكْتُ اسمي في بُعْدِ الوجود، فهو أصبح معدوم الكيان، لتعبث به العوالم ولتجسده في ساكن جديد تحمل أنفاسه براءة العالم، وتمهد له قصة تُضَمّ إلى أساطير الزمان.

انقطعت الحروف وجفت الكلمات، أغلق الحفّار دفتره ذو اللّون المترب وأجهش بالبكاء، انحنى بظهره على القبر وتقوّس على نفسه، ودموع تتسابق كسيل،أغرق وجهه بحزن شديد، تحسس التربة بأسى، وبدأ يحدّد أطراف القبر ويلهي نفسه مرددا كلمات ذات وقع حزين: لن أعتاد على الأمر أبدا، توديع أرواحهم، رغم أني لا أعرفهم، لكنهم كانوا يتنفسون ذكرياتهم الخاصة، كانوا بيننا. تركوا العالم ومعي وصاياهم. كيف أنقلها لأهاليهم؟ كيف أواجههم وعليها من الحزن ما يعيهم.

وقف الحفّار على عتبة باب المقبرة مودعا هذا الحيز الصامت، في صباح اليوم التالي بينما كان منهمكا بين الأتربة والحفر، التقطت مسامعه خطوات متهالكة تحيطها هالة سوداء، تقدّمت للقبر الفتي وتهاوت محتضنة ما أمكن من لحده، تبكي وتنوح، تقدّمتُ إليها وقلبي يرثي حالها، فحاولت بخفوة قول شيء مريح: "سيدتي ارحمِي قبر ابنك، وكوني له الدّعاء، ولا تشقي فهو لا يود أن يراك عليلة.

وقالت بصوت مهموم: "إنّه ابني يا سيدي، إنّه روح منّي، فهل تفهم؟

تراجعت من هول الكلمات بخطوات معدودة:

أنا لا أفهم يا سيدتي... آسف، فهي كلماته، وما أنا إلّا حفّار قبور.

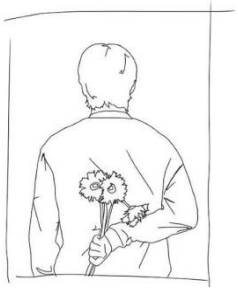

ساحر القلوب

عن نبيل لم تره عيني

يحكي عن عابث متنقل بين قرية ومدينة، وعلى لسان الأسطورة يقال إنّ له قوة عظيمة، لكن لم يكن بالشخص السيء أو يضمر شرورا، بل كان ساحرا يلطف القلوب ويلين الأفئدة والصدور.

مع كلّ إشراقة يوم يمرّ على أزقة هذه المدينة الصغيرة، تاركا انطباع الأمل في قلوب ساكنيها. لم يكن شخصا عاديا بل كان أكثر الأشخاص حضورا، بسمته كأشعة الشمس تشارك دفئها الفؤاد.

تحية هنا وأخرى هناك، ليقف أمام ذاك المتجر الصغير المفعم بنبض الزهور، استقبلته البائعة ببسمة أم حانية على ابنها: مرحبا رايان هذه باقتك المعتادة.

ليقطع كلامها بصوته الساحر وحروفه التي تذيب قلب كل أنثى: أعجز أن ألقي تحيتي على أينع زهرة. كيف سأقوم بذلك وأنت تتربعين على عرش الربيع؟

حطم قلاعها ليرقص نصرا على أوتار عواطفها.

أخذ من البائعة باقته بعدما أن ختم مفعول سحره ببسمة جعلتها أسيرة. توجه إلى المكتبة حيث يعمل فيها مسؤولا ولم يكن هذا منذ مدة طويلة، وما جعله يختار هذه الوظيفة إلا لسبب مجهول.

عدّل بذلته المخملية متربصا بعينيه الذهبية المخمورة بالمكتبة العتيقة، أخذ نفسا عميقا معانقا عطر أزهاره الفواحة: ما بها تأخرت اليوم يا ترى؟

ليفاجئه رن جرس الباب، وما كان الداخل إلّا تلك الفتاة الكئيبة. ما كاد أن ينبس بحرف حتى أوقفته دفاعا: لا داعي لكلماتك المعسولة فأين يوجد العسل هناك النحل.

هبّ ليصوغ كلاما لربما تصغي العبوس: ما بك تنفرين مني لست بسيء الهندام وقبيح المظهر.

لتردّ عليه بذكاء أسكته للحظة: ليست الملابس من تصنع الرجال.

أجاب بدهشة يشوبها إصرار: كيف لفتاة داهية مثلك أن تعيش شعور الخذلان.

بدون تقاعس أسكت رايان بِقَوْلِهَا: هذا ليس من شأنك. والحري بك أن تهتم بنفسك، فأنت من يعيش الفراغ، في حين أنّك تحشر أنفك في شؤون الناس.

آثار كلامها جنون ساحرنا الوسيم، فكيف لفتاة محبطة أن تعلم درسا لمن عاش قرون، لمن له خبرة عصور.

فاض الكأس ولم يبقَ له إلّا أن يقتحم قلبها الجلمود، فإما أن يينع حبا، وإلا لن يكون لساحر مثله وجود.

تقدم بخطوات رزينة تُشَارِكُ الأثير أمواجا من غبار سحري، انحنى للقابعة بجوار النافذة العملاقة حيث تخلّلها ضوء المساء الممتزج بلون

الزجاج وكلّ تركيزها على ورق الكتاب، رفع رأسها بسبابته، فالتقت عيناها بمقلتيه لتطلق سحرها الأخّاذ: يا فاتنة العينين، اخضعي لسحر كلماتي، حتى في أرض جافة بجوفها حياة، فكيف لك أن تغلق أبواب العشق والهيام؟ سيفتح ذاك القصر المهجور وسترقص فراشات الحب أنغام الحبور، وأن استعصى الأمر على تعويذتي فسأستخدم السحر المحظور حتى وإن أخضعتك لي فبعدها لن أعود أنا، ولن أتذكر من أكون، ستختم التعويذة وليكن ما يكون.

لامست شفاهه جبينها ليدشن تعويذته عليها.

أفاقت الفتاة وكأنّها كانت في صدمة، تراجعت بنفور لتسمع اسمها: إيفي أنت هنا؟!

تردّد صوت إحداهن في الأرجاء، لَمَتْ إيفي نفسها، وعيونها تتفادى الاحتكاك بمقلتيه: ابتعد عني واتركني بسلام.

غادرت إيفي وفي عقلها ألف سؤال لما هي في هذا الهيجان. أما هو فقد ارتسمت على شفتيه بسمة انتصار، فمفعول تعويذته فعّال.

مرت الأيام كالسراب، وبعدها عن المكتبة يزداد، تتفادى وجوده، تتفادى اسمه، وتتفادى خياله، حتى في الأحلام. لكن أصبح الأمر محال، دخلت كملكة لعرشها ليشعر بها رايان: أهلا بالجميلة في قصرها.

نظرت إليه بأعين متقدة: أصبح الأمر لا يطاق. ماذا فعلت بي؟ اسمعني الآن.

رد بنوع من الاستهتار: إنّه سحري يا رشيقة القوام.

ثار ثائرها وهبّت عليه بالكلام: أنا لا أؤمن بهذه الترهات، وذقت منها ما يكفي من الآهات وما الحب إلا حروف يملؤها الفجوات، من هنا نفاق بأحلى الكلام ومن هناك خذلان.

كلام كثير يخرج من فاهها لكنّ هو منتصب وراء مكتبه حيران: فُكَّتْ تعويذتي هذا مستحيل! فأنا ساحر عظيم من أذاب قلوب النساء، وليّن صدور الرجال، كيف تم ذلك وبمجرد كلمات أنا الذي ختمت قلبها بقبلة مني قبلة الهيام، إذن سينتقل سحري لمستوى محظور، وثمنه أن أنسى من أكون. ضاع في متاهات أفكاره، لكن أفاقته من شروده بصوتها الناعم، ليلاحظ بذلك تفاصيلها وثورانها الجميل: منذ متى لم ألاحظ أعين التوباز الغارقة ببريق الدموع، ورقة شفتيها تماثل بتلات الزهور، لم لا تهدأ للحظة فخصلاتها تحاكي موجات أثير من نور. وكل هذه التفاصيل الناعمة، أنا كنت عنها أعمى، فهل كنت جاهلا أو مجنون. دقت طبول قصر ساحرنا، لتعلن أنّه أسير تفاصيل جميلته، مفتون تعيس هو بحبها أو محظوظ.

غادرت إيفي، وكيان ساحرنا يطالب بقلبه المسروق. بالهذيان بها ينادي باسمها، يطالب بحضورها. أيام وأيام مرة وهو مصاب بهذيان، ولقد لعن نفسه على اللحظة التي أطلق فيها لسحره العنان. أين هو ساحرنا العظيم، لقد سُحِرَ بسيدة الحسن والجمال. ما لم يعرفه عاشقنا المريض كان في الأسطورة مخفيا في سطور، أنّ سحره سيدوم في عينيها،

وينقش في قلبها، ويرسم في صدرها ولن يزول، فهي أيضا في عشقه تغرق وتغوص.

نسي كلماته، خارت قواه، فقد أصبح وأمسى لا يعرف من يكون؛ لأنه بروحها مسكون. انحصر سحره على فاتنة العيون، تراه فارسا مقداما ورجلا شهما مغوارا.

زادت الأيام ألم البعد والفراق، وبين هذا الشرخ عششت عصافير الهيام. حسم أمره سيد الرجال، وقرر على أمر لن يرجع منه محال، اقتحمت خلوته وهامت في روحه، إذن لابد أن تكون له لا مجال. وهنا كان للأقدار كلام، ولجت إلى المكتبة وهو أدرك طيفها من أميال.

ابتسمت وفي حروفها مهرجان، مدت يدها وقدمت له الكتاب وما كاد أن يمسكه، حتى بدأت مخيلتها برسمه في أدق الحركات، وما كان لها إلا أن تمدحه في الفؤاد، ليغويها بصوته ذو البحة الرجولية في لحظات:

- هل لك أن تنظر في عيني للحظات، فقلبي فيك تاه؟ هلا فقط تأملت فيَّ خيرا؟ فأنا لن أكون لك مجرد متاع، فشخصي مريض فيك وأنت الدواء.

رفع وجهها فهام فيها للحظات، وهي رأته فارس الأحلام، فأجابت بفتور:

- لطالما ظننت هذا الشعور مجرد خيالات في سطور. لكنّي أعرف أنّه لن يطول، فأبتاه خاننا وهذا أسوء شعور، لذا لن أصدق كلمات تبني لأحبتي قبورا.

- استمع لها في شجون، ليدرك بذلك سرّ هذا البهوت. رفع يديه الرقيقة وحوط بها وجهها اللطيف، ليمسح قطرات لجين انسابت من مقلتيها

بحنين: ما بك أخبريني لما تبكين؟ هذا العالم ليس ملجأ للمساكين، وفي كل زاوية هناك شخص لعين! لذا نواحك لن يفيد. أنت قوية بطيبتك، لذا ثقي بي، فأنا لست بمن يضمر خبثا، فؤادي أنا الساحر العظيم دقّ لك لا لغيرك. لا ترتابي يا من كانت لي نعيما، فأنت بلسم روحي ونغمات عصافير. سأسكنك في قرة عيني وبين نجمات الأثير، فأنت القمر فيهن ولا يشابهك مثيل. لك مني حياتي، كياني، روحي وكل ما تدق به أنفاسي، فقد توجتك ملكة بتاج العنفوان، فأنت نبضي الأسمى وآخر شهقاتي.

انحنى بنبل ليلثم بشفتيه ظهر كفها النضير. لتزدان فتاته عفة وتتفتح كغصن نضير، فلاح من حولها سحره المثير، لتدشن لحظتهما كلوحة فنان خرجت من بوابة الأساطير.

مرّ زمن ولم يكن بطويل، لنسمع بقصة غلام يشفي الصدور من سقمها ويزين رفوفها بسمة وحبورا. فبالطبع لم يكن بشخص عادي؛ لأنه سليل ذلك الساحر العظيم. وكان للأقدار كلمة الحسم، لتبدأ بذلك قصة ساحر القلوب الصغير، فمن يدري؟! لربما هو بينكم يلعب بأوتار عواطف البهجة والسرور .

رجل في علبة

ابتسم العالم لا يراك

في علبة رمادية على رف العالم، يقبع بداخلها رجل عتيق كالزمن، يتنفس بهدوء بتهكم بضياع وجنون، نقيض العالم وفوضى العوالم، ملامح وجهه تحوي براءة رسمها العالم غصبا بألوان صاخبة، وخصلات شعره القصيرة كخطواته التي يجوب بها العالم بين حدود جدران علبته. يمر به الزمن ببطء شديد على إيقاع متناغم، يرقص عليه بسلام، كانت حركاته رتيبة متسلسلة، بين حركة وأخرى كان يسرد قصة مجهولة الشخوص، في عينيه لون بني مترب، ينفضهما من حين لآخر، كانت تحوي لمعانا حيا يبعث فيه التميز بشكل غريب، كان ما يصدر منه، إيحاءات الموت والفناء، كان يشير إلى جدران العلبة من حين لآخر،ما يخرج منه يبقيه مجنونا لكي يرسم على الأرض بأقدامه المبتورة، وهي تقطر حمرة ثخينة. كان لا يريد أن يكون غير ما كان وسيكون، كان راضيا بعجزه وناقما له. تتردد داخل تلك العلبة يوميا صرخاته الوحيدة، عميقة كانت على نغمات مستقيمة تستمر على حدود جدرانه الورقية.

رجل العلبة يستمر في الكتابة بالمقلوب حتى يقرأه العالم. رجل العلبة يرقص بتناغم الفصول حتى يراه الكون بفضول. في طريق العالم يمشي منهكا يجرّ معه حقائب الألم، جريح حرب وآخر محارب، كان ميتا سقيما

هزيلا وضعيفا، كان فقير المشاعر منهك الروح عديم العواطف، فقط تستمر الذكريات بخنقه وتعذيبه، انتهت الحرب ولازالت أوهامها تطلق صفيرها، كان يجفل كل لحظة من هول الأحداث، يتعذب من صراخهم وأعينهم التي تنظر إليه وتطالبه بحياته التي لم يرغب بها، لم يردها، كان يرفضها، يقف أمام الموت، لكن هذا الأخير يزيح منجله عن وجهه كل مرة، كان يواجهه وحيدا بلا رفاقه، رآهم يسقطون أمامه كالريش بخفة وكأنّها مجرد خدعة بصرية، بندقيته بين ذراعيه هاربا من أمطار المدافع والرصاص. كانوا بجانبه بجواره كتفا لكتف، وذراعا لذراع، كانوا جدارا متراصا بينهم عهد الوطن، إما الموت أو العيش له، خذلوه وبقي طوبة الجدار الوحيدة التي لازمت عهد الحياة، وابتليت بلعنة العيش وحيدا دون أخوة الأرض والدم، مريض وهو ينتظر وقته ليلتحق بإخوته، عليل الروح. وضعت الحرب سلاحها جانبا، وعادت جثث الجهاد إلى أهاليها؛ فمنها من ستعود للحياة في أحضان أحبتها، ومنها ستدفن في ذكريات الماضي وتبقى الجراح تدمي أحبتهم. أما محاربنا كان وحيد الوجود. عاد لبلدته مهزوز الأنفاس ليُرحب به الأحياء والأزقة بجفاء. فلا أهل له ولا حبيب، لا صديق له، فقد كان رجلا وحيدا.

تردد الجدران الحروف: "لقد عاد الغريب! ألم يفقد في حمى الوطيس؟" عاد لكن منزله يضرب فيه العزيف! المسكين وحيد! قيل إنّه مجنون هارب الغارة! بل كان أشبه بمقاتل قديم قيلت عنه الكثير من الأساطير، حتى صغار البلدة كان لهم نصيب من الحديث:

- هل رأيتِ بندقية المحارب القديم؟ كنت خائفة.

- قالت أمي إنّه بشع الخُلُقِ والخَلِيقَةِ.

- سارق الفتيات المزعجات!

- سوف أكون مثل المحارب الوحيد بطل العراك!

- أبصرت المحارب القديم، وكان طويلا وعريضا، مغبر الملبس وظله عجيب يلتهم في طريقه كل السيئين!

- قيل لي أن المحارب يملك عيونا لا تبصر الألوان لذا فهو لا يخاف لون الدماء فقتل بذلك كل الأعداء!

- لا لا بل لا يملك عيونا لذا كان يلتهم حتى جثثهم!

- ياع المحارب حقا مقرف!

- اخفضوا أصواتكم، قيل لي أنّه يسمع كلام الأشقياء أمثالكم من أميال.

هرب الأطفال بمرح من الزقاق بين أصواتهم هرج ومرج، وصراخ يعلو بين ضحكاتهم الفتية.

رفعت وجهها المدور بملامحها المبهمة، كانت رقيقة الصفات، وديعة الصحبة، شقية الروح، وغريبة الفكر، تقضي يومها بين رعاية أمها العليلة، وبستانها بسيط المساحة حول بيتهم الوديع، تراقب ظل المحارب الوحيد، مستندا على جدار منزله لساعات طوال يعدّ فيه أوجه الموت الذي لعنه بحياة الوحدة الأبدية. كانت تتأمّله والزمن يمضي عليه لياليه باردة وأيامه جوفاء، خلفت ورائها ظلها الناعم وتوجهت نحو بيتها الوردي، تهمس لأمها حركات الجندي العليل، بصوت مهزوز يحوي أحلامه الميتة

التي لن تكون، فتشاطرها الأم ذكريات من الزمن الجميل حينما كانت القلوب بطيبتها تسبق مآسي الحياة، بين تلك اللحظات الدافئة كانت صاحبة الروح الطيبة تحنّ على الجندي الحزين، سردت عليها بعض طرائف الجندي في صغره، كيف كان يجري بين الأزقة مرحا، ويلهو بينها في عالمه الوريف، بحجارة وورق يبني عوالما من الخيال وأطيافا، يبني معهم قصصا وأساطير، وبين هذه القصص كانت الحسناء تضحك ببراءة، على هفوات المحارب الصغير وهو يلهو في عوالمه التي كانت تسردها الأم عليها قاصة كيف كان يلعب بينهم وهو فتي.

التلة كانت عالية تحويه وهو شارد داخل الصندوق، تتراقص ظلاله وجسمه مع الغروب، في إيقاع غريب كان يحادثهم، يسامرهم تحت ضوء القمر، وتستمر الساعة في الدوران.

صباح يوم مشرق كان الجو ودودا لحد تهكم المنازل من ساكنيها، حاولت الحسناء إلهاء قرة عينها في هذا الصبح البهيج، فوجدت صعوبة إسنادها وإعانتها والألم فتك بجسم حبيبتها، فكيف لها أن تخرجها لتشاطر عرس السماء، فما العمل يا ترى وهي حبيسة جدران المنزل البسيط، ومنفذها الوحيد نافذة بحجم لوحة فنية تلهيها حينما يزداد الوجع عليها، على عتبة الباب حيث انهارت الوالدة ولم تقدر الحسناء على شيء، كانت تدعمها بحروف لطيفة فربما تقوى نفسها على التحمل، حينها احتضنهما ظل عظيم، هب بصمت نحو الأم الضريرة بأسقام الحياة، وحملها بين أحضانه التي بنتها شدائد الزمن، حواها برقة

وسلام متجها للجنة الصغيرة التي رتبت شكلها الحسناء، وبحنو هب وأنزلها على البساط المزركش بألوان البهجة، خط مغادرا لتخاطبه بأمومة فياضة: سلمت يداك القوية يا بطل.

هب المحارب ليغادر ولم ينبس بحرف، ليباغته طيف مشرق متمسك بذراعه وما حوله، حينها طغى عليه ذلك الحضور البهيج يحيط ظله ويلتهم تعبه ويمسح شؤمه المعهود، ويداعب ثنايا قلبه المنبوذ، ويهمس له بحروف من سلام، كان عالما لا يخصه عالم لا يشبه العلبة الرمادية التي كان بها. كان جاهلا به ضائعا يائسا حدّ البكاء، كانت الحقول تمتد حوله والحياة تضحك برقة له، شيء مختلف تماما خارج عن سيطرته. كان عالم مشرقا، موطن يودّ أن يلوذ إليه ويجهش فيه الدموع التي خنقته.

تراجع بصدمة للوراء الجندي المتهالك قاصدا الهروب، أدار ظهره مسرعا مغادرا المكان، تاركا الحسناء وأمها وخلفه ألف سؤال، اقتربت الحسناء بلطف وجلست بجانبها بحنو: أماه! هل فعلت شيئا خاطئا؟

ربتت الوالدة بهدوء على أطراف ابنتها، وبصوت عريق قدم ذكرياتها: إنّ المحارب يا بنيتي يكتشف عوالما جديدة، دعيه يرتاح، وقومي بدعوته لينضم لنا من حين لآخر، فرفقة الوحدة متعبة.

هزت الفتاة رأسها بطاعة وظلت تتأمل ظله الذي يمتد مع مغيب أضواء المساء.

تمرّ الأيام برتابة وتتنفس ببطء وسلام، يفتح المحارب المنهار أبواب الصباح، ليجد ما يطيب من الطعام على عتبته. توالت الأطباق أشكالا

وألوانا، شعر بحرج وهو متلذذ بما يقدم له من مأكل ومشرب، حائرا بأمره هل يرفض الكرم ويتجاهله.

- لكن هذا الطعام لا يستحق أن تنظر إليه، من أنت لتأكله؟ عليك فقط الموت جوعا ببطء شديد حيث تشعر بأمعائك تتلوى وتلتهم نفسها شيئا فشيئا، حتى تتآكل من داخلك بعد أن تصدأ أطرافك وتموت ميتة وضيعة ترضيك.

كانت تلك النفس السوداء اللعينة توهمه بالضياع، وتزيّن له الموت، تدفعه للجنون على حافة اليأس. أخذ يلتهم الطعام وكأنّها آخر وجبة في آخر لحظة من حياته، يأكل بنهم شديد، بشوق بسرور، كان الطعام لذيذا، دافئا، ومريحا، لقمة وراء أخرى والدموع تتسابق بين أطراف أصابعه، كانت طريقة غريبة يعبر فيها عن امتنانه وشعوره بلذة كل لقمة.

مضت الأيام بلطف شديد، لم يعهده المحارب الوحيد، يلتزم الحدود معهما لكن كانتا تدخلان عنوة لقلبه، الأم تترقب ظله في الأرجاء وتغدقه بطيب اللسان، الدعوات والسلام، وتحنو عليه بالسؤال. أما الفتاة فكان سحرها يتخطى جدران علبته الرمادية، هكذا بدأ المحارب المتعب يألف وجودهما، يحن لرؤيتهما، وفي غياب أشعة الشمس العطوف كان يتكفل بحمايتهما وإزالة العمل الشاق عنهما، ومن حين لآخر يمر عليهما بصيد وفير مما جناه في يومه الذي قضاه عابثا وتائها في غابات تلك القرية الباردة عنه غير دفئهما.

كان ضياعه متعمدا، يتغلغل في أعماق الغابة، يغوص متجاهلا أشعة النور وعلامات الحياة، يبحث عن الموت بين الجذور والأحراش في عمق المغارات وبين المرتفعات والتلال، يتسلق يأسه ويتدحرج بمشاعره إلى الدرك السحيق، في آخر المطاف يجد نفسه بين نهاية الذات وبداية وحدته أمام أعتاب منزله الفارغ.

ذلك المساء المزخرف بألوان المغيب، مرحبا بالنجوم والأحلام اللطيفة وبينما كان هو يتأمل جدران علبته الرمادية، هزّ شروده دق من عالم الحياة، حاول تجاهله عائدا إلى عوالمه عبر قطار التفكير العميق، لكن الطارق أبى غير أن يوقف الرحلة. أخذ نفسا عميقا وفتح الباب وإذا بالحسناء تبعث أضواء وألوانا بشغب وكأنّه مهرجان لمشاعر الحياة. أنزل المحارب عينيه بارتباك ينتظر حروف تلك التي تتقن وصف الحياة وتمثيل العالم المبهج بأشكاله، وببساطة أخذت بيديه تروى لهما ألف قصة. بدأت تهز علبته الرمادية وتمزج روحه بمشاعر الدفء مبهمة التعريف، كانت حروفها تتمادى وتتخطى فهمه وهي تبث له سرورها. تصله حروفها لكن كان فهمه محدودا، حاولت الحسناء إيقاظه من شروده لكن كان في تيه عقيم. أخذت تسحبه وراءها وأصوات ضحكها تدق أبواب السعادة، وترسم بسلاسة على ملامحه أطياف البهجة، بين ذلك العالم الدافئ أخذ وجوده يتشكّل ويكون.

احتفال بسيط بالمحصول الوفير. مرت اللحظات بصمت تام يستوعب ما حوله، كانت الأم تغدقه بالأطباق اللذيذة، والفتاة تسمعه أجمل

المغامرات، كان جامد الوجود بينهما، حنينهما وكرمهما ألجما لسانه عن الكلام، توارى وتلاشى سديم السواد حوله، وغاص بينهما وكأنّه جزء من هذه التحفة وفيرة الحياة. تمزقت جدران علبته ورحبت بضوء الحياة، وبدأ يذوب ظلام عينيه ويختفي، رتابة حركاته وكلماته أصبحت جزء من النسيان، وها هو على حدود النجاة يأخذ أنفاس الولادة الجديدة، يهب في الصباح على مزرعتهما ويأخذ وقته بها، يرفع عنهما بأس العمل اليدوي، ولا يغفو في مسائه حتى تقرّ عينه براحتهما، وفي قلبه بساتين الحب تزدان نضارة وجمالا. كانت بالنسبة إليه البداية الجديدة والولادة الحديثة، وما يريده أكثر من الموت والرحيل، كلماتها سخاء وابتسامتها هدية يخجل من تأمّلها.

أحبت الفتاة الحسناء عونه، وألفت سكوته، كان وجوده قرّ ماء عليهما، حضوره سلام حولها وغيابه شاق كشوق الزرع لموسم الرطوبة والأمطار. تقضي شرودها في تأمّله، صموده عظيم ويبذل الجهد الكبير من أجلهما، تهاب نظراته فتبدو لها وكأنّها تصارع أشباح الوغى في أعمق ذواته، كان الجَسُورَ في عينيها، الرجل المهيب، حامل جراح الحرب في قلبه الذي ينزف حزنا على فراق الأحبة، كان القوي صاحب الندوب التي تحكي ألف قصة عن الألم وأطياف الموت، أحبت صموده وضعف قلبه ورقة كلماته وفهمه الرزين لتقلبات الدنيا الغريبة.

الحسناء في أروقة السوق تبتاع ما بحاجة إليه، لتشاطر ما تصنعه يداها قرة عينها، ومحارب قلبها، لتسمع مجددا همسا تتعب كاهل محاربها

وكلمات تمس بطيبة قلبها وروح أمِهَا، كلمات جارحة وبعضها خادشة للحياء، تحيطها تهكمات وغيرة حالكة، وسحابة الغيض والبغض تشحن الجو حولها، جوٌ يكدر صفو الروح الطيبة المعطاءة بها، عادت أدراجها نحو تلتها المشرقة، مرت على محارب قلبها ملقية عليه بسمة وانشراحا بينما كان منهمكا في تحطيم بعض الجلاميد التي تعيق الزرع والحصاد، ليردّ عليها بتوتر ملحوظ رافعا رأسه باحتشام، وبوقار وتعفف ظل يستمع لها، وهي تسرد خططها بأرضها الطيبة، فهنا فول وهناك بعض الطماطم، وعلينا التركيز على البصل فهو دائم الطلب، وبعض أشجار الليمون في تلك الجهة ستلطف الجو ومنها أصنع عصائرا لكم جميعا، باردة ومنعشة تنسيكم حر المصيف، وكم أراحه سماع صوتها وهو يحاكي صفير الرياح القريرة وزقزقة العصافير الرقيقة، وبخطوات رشيقة متجهة لمنزلها ابتعدت عنه والقلب يناجيها، لم تقر روحه بعد بجوارها، فكيف لها أن تغادره هكذا وعيونه تطالب بنورها، فهو دونها أعمى يتعثرّ بعلبتهِ حيث اعتاد أن يجمع بها نفسه، هكذا صارت حياته بعد أن صب القدر ألوانه الزاهية على محاربنا العاشق الولهان، لكن ما لم يسمعه عن القدر،أنّه متقلّب المزاج، كثير العطاء في لحظة، وقليل الصبر في لحظات أخرى، وفي غيرها ناكر، ماكر وعابث يعدم الأحلام ويرسم غيرها لسر عظيم.

اجتمع نفر من قطاع النعم، مفسدين ولصوص بعد أن سمعوا عن العجوز الضعيفة قليلة الحيلة صاحبة المردود الجيد الذي أصبح

مدخولها مكسبا جيدا لهم. وُضِعَت خطة محكمة، والموعد بعد ليلتين تحت سواد الليل، حين يغيب القمر خلف غيوم الظلام، وفي كنف تلك اللحظات سوف يعتدون عليها وهي في عالم الأحلام تخوض.

عتمة أحاطت تلك الليلة، أعاقت تأمل المحارب الحزين، أخذ نفسا طويلا وقرّر أن يأوي إلى أحلامه المريضة، فربما يجد فيها شيئا من السلام المؤقت وفي ذلك الحين تنبه لصوت غريب، وتتبع أثره وخلف الجدران شهد جرمهم، وحينها هب عليهم بنية حماية الفتاة وأمها لكنّ وصوله كان متأخرا، فقد أضرم المجرمون النار في المنزل الصغير بغية إخفاء جرمهم الوضيع، واستنشقت الأم المريضة وبنتها الرقيقة من أنفاس النار ما جعلهما تفقدان الوعي.

هجم الجندي الشريف على اللصوص، منهم من هرب ومنهم من أرداهم موتى بقبضة غضبه، دخل كالمجنون غير آبه بالنار أو الحر، حرّر الأم العليلة من ذلك المنزل الخانق بتلك الألسنة التي التهمت حتى الجماد، عاد مسرعا إلى الداخل لينقذ قلبه من الهلاك، وجدها طريحة سريرها وروحها بين الحياة والهلاك، لفّ جسدها بما تلحفت به وهب مسرعا بها إلى بر الأمان، لكن على من يكذب وهو بداخله يصارع الخوف عليهما، ويكاد يتهالك وهو يحاول أخذ أنفاسه بين تلك النيران، وعلى جسده آثار الحروق العميقة التي لم يشعر بها.

شهد أهل القرية دخانا يتصاعد من التلة، والنيران تلتهم السماء، هبّ من كان مستيقظا حينها يمدون يد العون، أخرج المحارب الحسناء من

الأنقاض وهو يلتقط أنفاسه بإنهاك شديد. وضع الفتاة بجانب أمها، فتدافع حينها أهالي القرية عليهما يمدون يد العون ومن الرجال من تقدم بدِلاَء الماء يكافحون النار العتية ليخمدوا غضبهَا.

توجه الجندي المنهك من حربه الضروس التي أحرقت جسده وقلبه إلى منزله البسيط في علبته حيث تداعب جثته الضخمة فاقدا للوعي أم للحياة. وبين أنفاسه المتثاقلة، خيل له ذكريات من أيام التجنيد بين رفاقه يتسامر ببهجة، وذكريات أبعد قليلا أيام صباه حينما اعتاد الجري بين الأشجار والأحراش، وجروه الصغير يقفز بجانبه وكم كانت تلك اللحظات دافئة، ولأبعد من ذلك تجلت أمامه صورة والده، وعلى كتفه بندقيته وهو بين ذراعيه يلهو ويضحك بين الفنية والأخرى من حديث والده الذي لم يبق له من ذكرياته إلا تلك البحة الخشنة، عميقة الحضور، وبين حنياها أماني حنّ إليه القلب، بين شظايا العالم الحقيقي والأحلام ارتسم على محياه طيف ابتسامة، وتكفل به القدر ووضع نقطة النهاية.

بعد يومين استفاقت الحسناء، ورغم وضع أمها الحرج لكن ستتعافى حسب قول الطبيب، وأمّا حروقها الكثيرة لم تكن بتلك الخطورة، وستزول مع الأيام، ولكن ستعيش ما لن يزيله الزمن ولو عاشت عصورا، استفاقت وأهل القرية حولهما، وبهجة التعافي تعبق المكان، فالجيران الأقرب لهما استضافوهما بود ورعاية، بين شكرهم ومشاركتهم لها أهوال الحريق بعيدا عن جهلهم حول قضية اللصوص التي اهتم بها كبار

القرية. بدأت تستوعب حالها والوضع حولها، لكن هناك ما يشغلها ويعكر صفو صحوها، كان شيء مهما، قلبها يرتجف كلّما حاولت تذكّره، حينها تبادر لمسامعها كيف وجودهما بجانب بعضهما وحولهما الرعاية والحذر، ولقد ظنّ أهالي القرية أنّهما من هربتا من الحريق وفقدتا الوعي بعدها بعيدا عنه، حينها دقّ قلبها بعنف عذّب روحها، شهدت حينها صوره تتجلى أمامها بإشراق كان هو بطلهما ومحاربهما، كان ملاكهما الحامي، وبين الدموع تردد كلمات مبهمة ويدها ترتجف محاولةً استيعاب دقات قلبها وأسوأ مخاوفها، ترتجف والدمع يتسابق، تجري، تتعثر والرياح تجاريها. أسوأ تخيلاتها ترسم مصيرا مجهولا أمامها، فلم تعد ترى الطريق والدموع تحرق مقلتيها، والكلمات تختفي وهي تستغيث، تسقط بعنف وتقف من جديد، وكأنّ جروحها لم تكن مؤلمة بقدر خوفها من تلك النهاية المجهولة، طريقها يأبى أن ينتهي، يمتد على طول البصر، وقلبها يكاد يخترق جوارحها، مندفعة حيث يقبع منقذها، ملجأها حيث يستقي الأمان بجوار مهجة قلبها، حيث رسمت بجواره قصصا تلاشت وهي تحاول أن تتمسك بها خوفا وذعرا، وصلت ويا ليتها لم تصل،فتحت الباب وحينها لم تتوقف سماء عينيها من الهطول. كانت تمطر وكأنّ الشتاء في ذروته، كان قلبها باردا معتما وحيدا.

ارتمت أرضا واحتضنت جثته، احتوت رأسه وبدأت تردد حروفا خاوية من أحلامها، من ابتسامتها كما أحبّ دوما سماعها المحارب، كانت ترتجف وتردّد هامسة بين شهقاتها أحلامها له:

أنت البطل، أنت المحارب، ليس من المفروض أن تموت،أنت أقوى من هذا، لما غادرت؟ لما لم تنتظر حتى أخبرك عن المزيد من أحلامي وأخبرك عما يزعج قلبي بسببك؟كيف تترك أمي وحدها بعد أن رأت فيك الابن المطيع البار؟ لما غادرت بعد أن تعلقت روحي بك؟ لما تبتسم الآن بعد أن وجدت السلام؟ لما غادرت ولم تحاول توديعنا حتى؟ أعرف أنّك قليل الكلام ،أعلم أنّك جندي مجروح، محارب مصاب متعب متهالك، لكن ألم تكن تحمينا سرا؟ ألم تكن ترعانا؟ ألم تكن تعتني بنا سرا؟ أعرف ذلك، كنت أعرف ما تفعله تسهر حين تغفو عيوننا. ها أنت تركتنا، ترقد بسلام وتغادر هذه الحياة بابتسامة لم ترِها للعالم، أتبتسم للموت؟! هل أنت سعيد ببعدك عنا أم ببعدك عن هذا العلم البائس الذي أخذ منك تلك الروح الجميلة، وترك لنا فقط هيكلك ليقدم لنا السلام؟ هل كنت مدركا كم ضحيت؟ هل أنت مدرك كم قدمت للعالم؟ كنت الحامي، المنقذ، المعين، كنت ذلك الجو الملون بعد يوم عاصف في ذات مساء بارد، وروح ذلك الشعاع الأول الوحيد بشجاعته، انفلت من الغيوم الداكنة والصقيع، مُبَشِرًا بغد حالم جديد.

أيّها المحارب الوحيد، أيّها الجندي الحزين، أيّها الفدائي السعيد. قدمت أنفاسك، ذاتك، روحك، وهاهو هيكلك وأخيرا يترفع عاليا للسماء بين السنا والنجوم. سلام لروحك عزيزي الشهيد .

تدلّت من عنقه قلادة بها صفحتين معدنيتين، أخذتها الحسناء بين يديها وأمطار عيونها تتدفق سيولا من الآهات، بدأت تتهجأ حروف اسمه

والابتسامة على وجهها تناقض ملامح الحزن، احتوت القلادة بين أحضانها وبين أنفاسها ترتل دعوات تحلق بعيدا حيث يرقد بسلام.

‹‹ إلى عزيزي المحارب:

كانت الأرض هذا الموسم كريمة، أمي ازداد عليها المرض، فالزمن لم يكن رحيما معها، لكن تظل تبتسم حينما يتردد اسمك في الأرجاء. إنّه يحمل اسمك بفخر، ولقد أخبرته عن الكثير من التفصيل التي تميزّك، والده رجل شهم وخلوق ساندنا كثيرا وكان من أشد المعجبين ببطولاتك. أعرف أنّ رسائلي لن تصلك، لكن أعدك أن أكتب لك المزيد، فأنت لم تكن وحيدا، روحي تأبى نسيانك، تعرف أنّك لم تكن شخصا عاديا والعفة رفيقتك، الشهامة خليلتك، وكنت الشعاع الوحيد الذي يرافق العالم، مازالت ظلالك تحوم حولنا، كنت الرجل الحالم، والقلب الحي، كنت أتساءل كم من فكرة احتويتها بداخلك، وكم من ضمير ينبض بذاتك، وكم بذرة حب وخوف وامتنان زرعتها بنفسك. أنا سعيدة لأنّك وأخيرا تخلصت من تلك القيود التي أعاقت رحلتك طويلا، لطالما اعتقدت أنّك لا تنتمي لهذا العالم أنت روح نقية تقية، نجت من فوضى العوالم وبقيت عالقة في عهدنا البائس، تبحث عن الخلاص في أرض الرب العظيم. لا أعرف شيئا عنك جريح حرب لم يرغب بها، أعرف أنّك تشعر بالسوء، بالدونية وبالجرم العظيم، لكن أعلم علم اليقين أن العالم سيظل يحاسبك حتى لو كنت ملاكا. اعتق نفسك من هذا الحمل المهلك للنفس، لم تكن مجرد هيكل بالٍ بلا أثر وظلال، بل أشبه بغيم مر بأرض قاحلة

مقفرة، أفرغ عليها صبابته فأحيا بها الشوق والحنين، فأينعت حبا وسلاما.

سلاما لك أيّها المحارب...››.

رجل في علبة وضع فيها ضميره، والكثير من المشاعر الجميلة، عليها غبار عتيق، وفي زاوية أخرى كان يكدس بها أقنعته، وعلى أرضية العلبة دونت إنجازاته، لكن لم يكن ينتبه لما تحت قدميه، كان يراقب جدران العلبة ويعيد عيش أدواره مع الظلال.

رجل العلبة لا ينتبه لنفسه لكن يعير العالم العين الرقيبة والأذن المستمعة.

رجل العلبة الرمادية، عنيف مع ذاته قليل الصبر معها، ويائس من حالها، لكنّه يُحَسِّن مظهرها ويعرضها بألطف حضور.

رجل يعيش في علبة رمادية يراقب العالم، يستمر في التفكير، يتسلل حين يغفو الخلق، ويلهو كطفل وحيد حين لا يراه أحد يبتسم كعابث صغير يخلق من الفوضى شيئا لطيفا، وعندما تستيقظ العيون تشعر بالتغير وتتمتع بنعيمه، لكن يظل رجل العلبة الرمادية وحيدا.

رجل بالمقلوب

عندما تدرك انفصالك عن العالم

فما أنت حينها إلا رجل ذو تفكير مقلوب.

تستمر الدقات ويعدّ الزمن والعالم معكوس، يستمر في التنفس ويدقّ الأبواب، والجدران تضيق، العلبة لم تعد تحتويه والغطاء يرتفع مع صخب الطبول وموجات الأنغام، وحين تهبّ الرياح يتمرّد بكلمات غريبة.

يقال عنه الكثير: نوبة جنون تملّكته، لا بل به مس من كائن عجيب، مراهق طائش من آخر الزمان، دعوه في سلام فلا أحد يعرف ألوانه.

ربما لا أعرف ما أفعله، ورأسي في القمر، لكن يبقى لوجودي ثوابت، التسكع في صمت بين الكلمات في ذلك المنزل المهجور. بين رفوف متهالكة تتناثر ذرات الغبار كأثير سحري، وتنعكس من خلاله أشعة خافتة تثير دفئا لطيفا على ملمس بشرتي، الوضع باهة والهواء ثقيل والزمن في نقطة ما لن تشعر بوجوده من عدمه كانعزال هذا المكان، مسالم وطيّب. الرطوبة تمتزج مع عبق الورق العتيق، تتواضع طاولات من خشب الأبنوس في الاتجاهات الثلاثة مزخرفة بنقوش لغة غريبة، وأزهار الليلك على الحواف، كذلك الرفوف تحيطها مقاعد مبطنة بقماش ثخين ناعم الملمس بلون نبيذي منتفخ بحشوة طرية، النوافذ عالية بزجاج ملون سميك، والباب العريض عتيق التصميم، يتموضع على جانبه الأيمن، مكتب عليه أكوام ورق وأقلام ريش أسود مصطفة، وأنا الذي اعتقدت

أنّ زمن تلك الأقلام ولّى، وعلى أحد الجوانب قالب شمعي من تحته أوراق تتطاير أطرافها بفعل الرياح الصادرة من أحد النوافذ بجانب المكتب.

ارتفع صوته من العدم فجأة، وهذا شدّ انتباهي وجعل شعيرات جسدي تقف من توقع كلامه القادم: أيّها الطفل الطائش، عديم الحياء، قليل الأدب، ذو...

قطعته بسرعة قبل الاستماع إلى خطابه الطويل الذي تنحسر كلماته على شتائم حفظتها كأسطوانة في جهاز ستيريو ببوق كبير، وببعض كلمات منمقة بدأت أمتدحه لربما تهدأ أعصابه: سيدي، مكتبتك مذهلة ومدهشة، وأنت رجل لطيف ومحب للمثقفين مثلي...

وهنا توقفت بعد أن رمقني شزرا، بعيون حادة كنسر يتربص بفريسته، تشجعت مجددا: سيدي، أنا أعدك بأني لن أسبب أي مشاكل، أقسم، وأيضا سيدي أنا لست طفلا، انظر أنا رجل بيولوجي أو نفسي أو لدي دماغ يضخ نضجا وذكاء، لذا لست كما تصفني، سيدي مزال يحيرني أمرك، منذ أن تعدّيتُ على ممتلكاتك طبعا بسلام تحت إرادة روحي الفضولية المستكشفة، ودماغي يشغله سؤال واحد، ما سرك؟

نظر إليّ بإمعان وكأنّه يدفعني إلى أعمق زاوية بداخلي، حيث تسكن زوابع أفكاري وفوضى رغباتي. أخذ لنفسه كتابا بعد أن مرّ بين الرفوف بخطوات محسوبة، واتخذ من أريكة عتيقة تصدر صريرا يحدث نفورا في نفس السامع.

هندام مفصل على هيكله، مضمور العضلات دقيق الحركات يتناسب مع ملامحه الحادة واضعا نظارات ذات إطار دائري، فضية المعدن، تزيّن محياه وتبرز لمعة مقلتيه، تلك اللمعة التي تثير فيك الحماس والقلق نحو هذا المجهول القابع أمامي، تلك اللذة التي تنبه الغرائز بداخلك. حشو من القصص والأساطير العجيبة تلفه السرية التامة.

خاطبني بزخم صوته العميق: اجلس أمامي أيّها الأمرد.

سحبت مقعدا بالجوار والتزمت حينها الهدوء.

استرسل في حديثه: تتوارى عن الأنظار وتراقب هيكلي العتيق، تظلّ متسمرا في الطرف الآخر من الطريق ثابت النظر على الأبواب والنوافذ. ألم يعلّموك أنّ التطفل له عواقب وخيمة، وبعيدا عن هذا وذاك ألم تصلك أخبار المنزل الملعون أو قصصا عن الرجل الأشيب ساكن البيت القديم؟

بعزم أجبته وحماس الشباب متقد: سمعت الكثير، لكنّ الحقيقة ترى بالعين، وأنا لست بالإمعة الجبان لأرتعد من قصص الأطفال، وضعت الكثير من الاحتمالات، لكن ما أراه هنا أفخم من أن يتصوّره خيالي. من طيش الرفقة إلى التحرش والتعدي على المَعْلَم القديم ذو التاريخ المريب، قبلت التحدي وخطتي كانت كالتالي: المراقبة، جمع المعلومات، ووضع الاحتمالات فتمت المهمة بنجاح. لم أكن خائفا وكلّي همة في كشف السر خلف تلك الجدران، لكن شيء يحدث هنا وأنا أدركته، كنت أعلم أنّه لا

يجب عليّ التوقف في ذلك البهو الواسع، بعد أن تسللت عبر النافذة المفتوحة - وهنا أدركت ما فتني- سيدي لقد تعمّدت ترك الدفة مفتوحة.
ابتسم عرض خديه ذلك العجوز وهنا درأت الإبهام عنّي واندفعت مجددا: سيدي لما فعلت ذلك؟ أنا لم أعد أفهم غايتك؟!
- كان لي من الحياة نصيب من المغامرات، وكم من الحماس فاق عطشي للمجهول، توقّعات من حولي، وبيدي حينها الحرية والشباب. أخذت زمام نفسي وبنيت لحياتي مسارا سليما بعيدا عن الطيش والجهل، خضت بذلك أغوار الحياة، وكان العلم شراعا، والفضول مجدافي، وفي تلك الرحلة الطويلة تعلّمت أشكال الفنون وأصناف العلوم، وفي معاركي مهزوم فيها أو منتصر، كانت غنائمي كنوزا أو ندوبا أثمن ما أملك. فقدت الكثير، فالحرب لم تكن رحيمة، لكن كنت رجل رميزا، بين خطوط الجبهات والبنادق على الأكتاف، نُسِجت بين قلوب الجنود أوصال، سالت من قطعها دموع ودماء، وصارت تلك الصور من ذلك الزمان ذكريات لا تفنى أو تزول. دوّنت بعضها بين سطور وغيرها في ورق محفور، وكلّها قصص مغمورة، طمرها الإهمال والغبار. مرّت الأيام بجمود، وحيد بين الحشود وألم ذكراهم طيف يسرد حكاياهم في صحوي وغفلتي، لازلت أدوّن خطوات أجسادهم المضرجة بدماء عن ظلالهم التي تتمايل خلف التلال تتربص بالعدو، عن آمالهم وآلامهم، حبهم وأرضهم، وضعت الحرب أهوالها وعادت الحياة تلتئم ببطء شديد، وأنا بقيت وحيدا كالمجهول ضعيف الروح شريد الوطن.

تمرّ السنوات ساكنة في خط مستقيم، وتتآكل الروح في مسارها الثابت الطويل. كان برعم شقيا، ترعرع بإشراق في هذا الركن الكئيب ذو وجه وهاج فضفاض، أرى فيه الحنين والحياة شبيه نفسي، أمرّ بجانبه كظل قديم وهو غلام بهيج، كبرت وزاد في عمري سنين. ها هو بين أقرانه مميز فريد، مقبل على المجهول بإقدام، وأنا خلف زجاج النوافذ أرى طيفا من شبابي يحيطه. كان فريدا نقيا مميزا لا يشبه العادي البليد، عطش للغريب والعجيب، فصيح التعبير، كثير السؤال، ودقيق التفكير، بدأ يتجلى في كلماته الوعي والنضج السليم، وسرا أراه يستقي من مناهل العلم الفيض الكثير، ويسرق من شبابه الوقت لينظر في العالم ويجد لنفسه السبيل، فلقب بذلك بالفتى السقيم، أليس العالم مريضا يقتل كلّ شاذ جديد؟

تنكّر الشاب الأمرد للحياة، واندمج في العالم الخامل، فلقد كان الرجل المقلوب الوحيد، كان مختلفا عن أصلهم، معكوس التفكير، بهي الطلّة ورمحا قواما، بارز الحضورّ، وشهما مغوارا، رقيق الظل وحاد التفصيل، ذو ملبس منضبط محاك على هيكله، لا بهرجة به تفقع النظر وتذهب الهيبة، حسن الشكل وتقيّ الروح.

كنت ألاحظ بهوته بين تلك الزمرة البُوهة، كان يتنكّر على الأنظار، الأسماع والعالم، وكان حاله بين الانصياع تحت الأبصار والعبث خلف الستار، وتقاطعت به السبل في مكتبي العتيق ويا له من حظ عابث في الأرجاء سعيد.

تمرّ الأيام وتتهالك الأرواح والأجساد، وتضمر الذكريات وتتلاشى الآمال والأحلام، لذلك تزورنا الآلام على حين غرة فترسم إرادة الأقدار، فتفتك بالنفس وتمحو لذة الحياة وجمال الوجود، لكن لنفس البشر إرادة العنقاء، تولد من الرماد لتنحت في الوجود مسارا لها بهمة وعناد صلود.

تناقلت الأخبار المشؤومة على عجالة، وسمع بها الشاب الأمرد، ودب في قلبه الأسى والحزن الشديد، تسارعت خطواته وزاره قبل أن تسرقه المنية من الوجود. قيل أنّه وجد على الرصيف منهارا عليلا.

خاطبه الشاب بحرقة: سيدي هل أنت بخير؟ هل بك أي ألم؟ هل يمكن لي أن أقدّم يد العون لك حتى ولو من بعيد؟

ردّ العجوز متهالك الأنفاس: انظر إليّ أيّها الأمرد القوي، الحياة مطبات غير مريحة، فعليك أخذ الأمور فقط بروية، ولا تدع نفسك تنجرف مع زوابع هذا العالم الفاني، ولا تتجاهل نفسك وضع لها بصمة في هذا الوجود. ها أنا أمام آخر اختبار لي، لقد اجتزت الكثير وما عليّ إلّا تحمل القليل، شرف لي أن تكون أجمل خاتمة لي.

ارتفعت الروح، وتهاوت الأحزان، وتدثّر بها الأمرد لوقت ليس بطويل أو قصير، يمرّ الوقت بعزلة عن العالم، فلا نشعر بما أحدثه من تغيرات فينا. نولد ونتعلّم، نُخفِق فنقع ولاحقا نقف، ننمو وتستمر قصتنا في سرد نفسها على دفاتر العالم.

كبر الأمرد وصارت أحلامه شيء فريد في هذا العالم الضيق، أخذ من ذلك المكتب العتيق ملجأ، وفتح فيه عالما ساحرا يأوي أرواحا طيبة

الأنفاس، مخنوقة الأفكار ومعزولة في هذا الوجود. أغلق الدفتر واضعا القلم الحاد المزخرف بنقوش فضية على جانبه، رافعا بصره لمن وقف أمامه خلف المكتب. كان مراهقا ضعيف البنية، حاد الملامح وذو وجه متمرد يتخلّله شحوب في كلا جانبي فكه، أشعث الشعر وناعم كالريش، بصوت خافت: سيدي، أعدت الكتاب إلى الرف، وأيضا لديّ سؤالا؟

ابتسم معدلا جلسته، رافعا أكمام قميصه، واضعا ذراعيه على المكتب وهو يرسم في خيالاته كلّ تفاصيل القابع أمامه، يقرأ حركاته وأنفاسه: نعم أسمعك أيّها الأشعث الضئيل.

- سيدي بحكم أنّك رجل ناضج ذو تجارب كثيرة، مدركا للكثير من تفاصيل الحياة، أخبرني لِما أشعر بالغرابة بين الناس؟ لما الجميع وكأنّهم أجساد مستنسخة من نفس المصنع مطموسي الروح والأفكار؟ سيدي أشعر أنّي غريب عنهم وعجيب، وكأنّهم هم الصواب وأنا مجرّد فرد شريد، أين أنا منهم؟ هل انعكس العالم أم أنا من يعيش بالمقلوب؟

بهدوء أخذ الأمرد بكلّ جوارحه نفسا سلسا وعميقا، وابتسم بود وعطف يسرد ذكريات قديمة وحنين، وقال بخفوت: وكأنّ الأمر حدث بالأمس...

بنبرة أخوية وود هامسا بشقاوة مع غمزة ظريفة: عزيزي الأشعث الضئيل، لست المقلوب الوحيد في هذا العالم المربك الرتيب.

تنجلي الأيام وتبقى الكلمات ذكرى تنحت بعضها خدوشا أو بذور الحياة، وغيرها تتلاشى وكأنّها لم تكن، بين أضواء المساء التي تسللت مع نسيم الغروب، حروف دوّنها الأمرد كمنتهى لحكايته.

سامحني أخي!

يوجد دوما شيء غريب في قلوبنا
ثقب أسود صغير يلتهمنا

مازال صدى صوته يتردّد إلى مسامعي، كلّ تلك الكلمات تتكرّر في ذهني!

- هاني أين أنت ردّ عليّ؟

كنت أتفادى الوجود معه، فقد كان سبب المشاكل، فهو يطاردها والمشاكل تطارده. أنا نوعا ما كسول، أفضّل مشاهدة التلفاز أو مطالعة القصص المصوّرة، بدل مشاركته اللعب، لكن أنا مضطر لمشاركته كلّ شيء، إنّه أخي التوأم سامي. أتذمّر دائما من ندائه، هذه هي حالتي؛ فأنا مجبور على مرافقته، فأوامر أمي على كلّ قرار. نحن كالقمر له وجهان مختلفان جانب مظلم ومنير، كيان واحد، شخصيتين مختلفتين، هذه يومياتي معه أطارده في كلّ مكان، سامي مهمل لنفسه، مرح كعادته مغامر بطبعه محب لكلّ غريب ومجهول له، فضوله ربما كان سببا لكلّ تلك المشاكل، لكن تعوّدت عليه، وأدركت أني لا أطيق الابتعاد عنه وكأنّه الجناح الثاني لي، أو كأنّي المراقب له.

- خذ حذاءه ومعطفه ولا تنسى غذائه.

هذا هو واجبي فهو دائم النسيان، فروحه مع الطيور والغيوم، وانشغاله باللعب والاكتشاف يمنعه من تذكّر كلّ هذه التفاصيل. نعم... ربما كانت هذه حياتي قبل أن تحفر هذه الثقوب السوداء في قلبي، وأن تعيق بصيرتي وأن تدمرّ جدرانا ملوّنة بألوان الطفولة، أصبحت أحلامي

مقفرة، سببه ذلك البئر اللعين. في كلّ مغيب ننافس الطيور في الباحة الخلفية لمنزلنا في طيرانها في قفزها من مكان لآخر، متجاهلين ذلك الجزء المظلم المجهول في ذلك الظل الممدود تحت ذلك الشجر المشؤوم، فما كنت أعرفه عنه أنّه بئر ماء وكفى، ولكن
في تلك الساعة في ذلك المغيب الشنيع.

دبّ صراع أطفال على لعبة تناسينا فيها أنّ اللعب والمرح قبل كلّ شيء هو العطاء، حلّ الخلاف مع صرامة الأم، لكنّ العداوة مازالت تنبش عظامنا. فرقتنا الأم عن بعضنا لكي نشعر بسوئنا، لكن سامي كعادته نسي الأمر وتفرّغ من جديد للعب، راسما على وجهه مرحا من كلّ الألوان.

طلبت مني الأم أن أنبهه لانتعال حذائه، حتى لا يقع على الأرض المبللة، أخذت فردتيه في يدي ودخلت عليه، إذ بي أنادي: سامي خذ حذائك؟!
فأجده يداعب تلك اللعبة من جديد، شعور لا يمكن وصفه، ظلام تلبس كياني، عظامي ترتجف، ورغبتي قوية للبكاء، وكأنّ غيوما سوداء من الكآبة والحقد تحتضنني، صراع جديد ظهر وشعور غريب ينتابني، حاولت طرد تلك الزوابع الغريبة، وكبت تلك الهواجس العجيبة، حيث شعرت أنّها تحاول تحويلي لوحش، كنت صغير لدرجة لم أكن أستطيع أن أميّز تلك المشاعر التي تلبستني، أهملت واجبي للهرب من تلك الساحة المحمومة، حيث شعرت بأنّ كلّ كياني قد احترق، توجهت إلى غرفتي، في شرفتنا الصغيرة، جالسا مطأطئ الرأس، وضَلِلْتُ أفكّر في كلّ تلك

الفوضى محاولا فهم ما يحدث، محاورا نفسي: أمي فضلته عليّ، فلا نفع منّي، أنا زائد بالنسبة لها، أنا أكرهك يا أخي!

لم أنتهِ من صوغي كلماتي وأفكاري حتى شعرت بذلك الألم، ألم قاتل، خوف شديد، حزن عميق وظلام رطب يجذبني إلى الأسفل حيث لا قاع، وكأنّه يحتاجني، يحتاجني بشدة، لأسمعه يناديني: هاني؟!

جفت عروقي، تصدّعت عظامي، ذاب جسدي وكلّ كياني، شعرت بضعف منعني من تحريك أعضائي، بجهد كبير، توجهت إلى الباحة لأجد أمي وهي تضعه على الأرض ودموعها كالسواقي. الجميع ينظرون إليّ بشفقة.

- لا أرجوكم لا تنظروا إليّ هكذا، لست السبب...

توجّهت إلى البئر متسائلا، والناس حولي، خطوت كشبح كميت أرتجف في كلّ طرف من جسمي وأردّد: إنّه غارق بسببي! أنا السبب أليس كذلك! الذنب ذنبي!

توجهت إليهما حائرا، الحذاء... مياه البئر... قدماه حافيتان... اللعبة في يدّه... الصور مشتتة...

- أمي ماذا... ماذا حدث لأخي؟!

أردّدها والكلمات تخونني، والدمع يكاد لا ينقطع من قلبي: هيا... تكلّم سامي! أرجوك تكلّم سامي...

حضنتني بشدة وهي تردّد بصوت حنون يتمزق من الداخل: لا تنسى أخاك، يا ولدي! لا تنسى أخاك!

مرّت الأيام بسرعة، كبرت في أحضان الحزن واليأس والشعور بالذنب، وأنا تائه أسمع صوته، وأنا جالس أرى طيفه يضحك. في كلّ مكان يتردّد صدى خطواته، منعزلا، ضائعا، خائفا، انطوائيا، وحيدا، أصبحت أكره نفسي شيئا فشيئا. حاولت التخلص من ذاتي أمام ذلك البئر تكرارا ومرارا. لكن لم أفلح؛ لأني خائف منه. صرت أتصرّف مثله، مزعج كشوكة في أيدي الجميع، فقط ليعاقبوني، فقد أشعر بالراحة من ذنب لم أقصده، لكنّ الجميع يتغاضى عن تصرفاتي؛ لأنّي مراهق.

- ألا تفهمون، أرجوكم تخلّصوا مني، الذنب ذنبي أنا. قتلت أخي. أنا وحش حقير . أنا أودّ أن أكون بجواره... أرجوكم افهموني، أنا فقط أستحق الموت.

بدأ الجميع يتناسى الأمر، لكن مازلت ألعن البئر ونفسي، فقط أريد أن أرى سامي يبتسم أمامي. شاب تاه بين قصص الموت والحياة، تحوّلت حياتي للجحيم، وفي كلّ لحظة أردّد "لو ...!" لاحظت أمي ذلك فلم تتحمّل عذابي، ولتخبرني أنّ سامي لم يكن موته ذنبي ولا بسببي، بل طلب منها اللعبة ليعيدها إليّ، ويطلب مسامحته على عنادهِ، لكنّ مياه البئر حالت دون ذلك، فسقط في جبها وظلماتها. كانت مرارا تسرد الحادثة من جديد، تطعن قلبي بألم شظية من زجاج. فقد أدركت نبله وانحطاطي، والحقد أغواني وجعلني أهمل مسؤوليتي، احتفاظي بحذائه جعلني أزور البئر كلّ يوم بأدواته، ألعابه محاولا استحضار طيفه، طالبا السماح ومعتذرا له،

لكن أنا اتهمت بالجنون، ذاتي ترفضني، بكيت دموعا من رماد، احترقت وأصبحت ركاما، ركام من سواد.

بعد سنوات من هجرتي ذلك المنزل الملعون، مازالت الكوابيس ترسم لي صورته أمامي رجلا بأحلامه، مازال الجميع يرددون أنّي لست السبب، رغم ذلك فأنا مقتنع بأنّي قاتله. أخطاء البراءة تحوّلت إلى ذنب عظيم، أدركت ماهِيَّة الغيرة، أدركت ذلك الوحش الذي أغواني. عدت إلى البئر لأقول له كلمتي الأخيرة: "سامحني يا أخي، ذنبي إهمالك، وخطئي غيرتي منك، أعتذر منك، سامحني يا أخي. الغيرة حولت قلبي إلى معدن قاس، ولهيب حقدي جعلني أسبح في نهر الأنانية. الغيرة جحيم لا خلاص منه، لذا أنا قادم إليك يا أخي لأعتذر لك، وتسامحني، وأعدك ألّا أتركك مجددا".

في الصباح أشرقت الشمس على جثته الرطبة بعد أن انتشل من قاع ذلك البئر، وهو يحتضن حذاء أخيه البالي، وبسمة على شفتيه غسلت كلّ ذلك اليأس والضياع، وكأنّها لطفل صغير مازال نائما في حضن أمه.

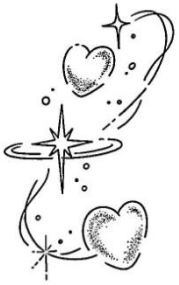

لحن الغجر

"أجد نفسي حزينا وحيدا، أبحث في الطرقات عن الدرب. أنا مشرّد في العالم، والدرب دربي أنا، أنا غجري وبشرتي سمراء وأسناني ذهبيّة، أنا المشرد في هذا العالم". "El camino Gipsy king"

صفوف طويلة يتعالى منها صخب عائلي عالٍ، يجوبون العالم عبر الشوارع، الطرقات، المروج والجبال، ترتفع أذرعهم إلى السماء، وبنغمة عالية واحدة تتمايل أرواحهم، في أحضانهم طبول وأيديهم تتفنّن في مداعبة الدف بمهارة وإتقان، ألحان المزامير تعانق كلماتهم، وها هي الخطوات تتسابق على مسار مستقيم نحو أرض مجهولة تحويهم، تتعانق الأقدار وتزهو، يفوح منهم طيب الأعشاب، وروائح الطريق فيحيط تلك الكلمات التي تنبع من أرواحهم البرية، تتراقص مع البخور وتتمايل كأثوابهم الملونة، على ظهورهم متاعهم البالي، وبجوارهم عربات تحوي منازلهم من خيام وذكريات، وعندما يحين اللحن المنشود يقفزن رشيقات الخطوات، وتتموّج مع ملابسهن ألوان البهجة مع أصواتهن، تعلو زغاريد المساء فينافسن الطيور والفراشات في زهوهن، خطوات متناسقة وقفزات متتالية ومعدودة، فتتشابك أذرعهن الرقيقة فيما بعضهن يدرن في حلقات على أنفسهن وحول أنفسهن، وكأنّهن زهر بستان زاهٍ، حياة ملونة روح برية ساحرة، روح رحالة تحويهم تحملهم عبر أمواج الأثير إلى ربوع أراضي العالم، وحيث ترسو غرائزهم تستقرّ أنفاسهم، من حين لحين يشدون الرحال مخلفين وراءهم آثار ومعالم ذواتهم عالقة في

الزمن والذاكرة، أطلال على الأرض والقلب، لصوص تفننوا في سرقة القلوب والدموع يعبثون بأملاك ذاتك ووعيك، هم البرية والروح المهاجرة، صفير ألحانهم تتراقص مع أوتار القيثارة والجوع، يدفعهم الوجود نحو أحضان البرية، فيبحثون عبثا عن الانتماء، فيتملكون الدرب المجهول.

- أنا المشرد، بائس المظهر، سيء السمعة، ساحر الحشود، ولص الجيوب، أنا المشرد، صائد القلوب، حر الروح، ابن الأرض وسليل الطرقات، عشيقتي القيثارة وبناتي قصائد البرية.

- أنا غجري وحيد، أنا المشرد الحزين، أنا النقيض أضحك مع الجوع وأبكي مع الألوان.

- أنا الغجري الذي رسم الطريق بقدميه، أنا الرحال الذي يبحث عن الحقيقة، أنا الغجري الذي رقص على جذور الأرض وتحت ضوء القمر.

- أنا الغجري البائس الذي نفث نار الحب والألم من صدره لإبهار عيون الناس، وتحت شرارات اللهب ترقص ظلال الجوع وتسلب حقها من العرض.

- أنا غجري بائس ذو مصير مجهول.

- أنا الحسناء ذات الصوت الساحر، ابنة ذلك الغجري الغيور، وأخت ذاك الغجري الهمجي، أنا صانعة الإيقاع ومنه نسجت الألم خطوات رقص.

- أنا العنيد العنيف، أنا الشديد القوي، هؤلاء أرضي وأمي وأهلي وأنا أفديهم بنفسي، قافلتي وخيمتي موطني .

كان طريق الرحلة طويل، العربات تجر وخطوات منهكة، كان المسير صعبا وقرّ السنة شديد، لكن لم يبق الكثير بعد ليلتين سوف يستقرون على السهول فطرق الجبال صعبة. تبدو المدينة من بعيد ساكنة غير الأضواء تنطفئ وتشتعل كتغير الليل والنهار، ثابتة، مثالية ومريبة.أرخت القافلة أنفاسها للحظات حتى طلوع نور الصباح.

أزحت ستار عربتي وبدأت أتأمّل النجوم، تبدو المدينة البيضاء رتيبة من بعيد، سيكون من الجميل إضافة بعض الألوان والحركة عليها، استندت على عتبة النافذة والمدينة البيضاء غرب الطريق تشغلني. من بعيد بدت مميزة بصخورها العتيقة، يحيطها سور عريض غليظ، كانت محصنة بشكل غريب لم نعتد رؤيته، من بعيد كانت أشبه بحصن عتيق منيع، تقدّمت قافلتنا ببطء شديد، محاولين كعادتنا قراءة المحيط وأجواء تلك المدينة الساكنة.

كان المسير بطول يوم وليلة، وحسبما تناقلته العربات، فالمدينة عتيقة عديمة الحس، تحت حكم ملك مغلق الذوق وقليل الإبداع. قيل أنّها مدينة الأشباح، قصور جافة من السرور، والأطفال قليلون عدهم على أصابع اليدين، والقانون بها خط مستقيم، يفوح من أزقتها طيب الخبز الطازج وعليه حبات السمسم منثورة، تحوم نغمات الصمت في كل

الأرجاء، فما قيل عنها لا يشبه إلّا مدينة الأموات، رغم مثالية المظهر إلّا أنّي لم أرتح يوما لمثل هكذا أمور.

تمت الاستعدادات ولم يبقَ الكثير. قيل أنّ المدينة تستقبل لها أي قافلة غجر منذ قرون، أخذ زعيم القافلة وهو ذاك الوسيم حبيب قلبي ووالدي تصريح الدخول، لعدّة أيام - لم تكن بالكثيرة - للمكوث موسم واحد، ولن نزيد وهذا ما كان عجيبا، قال والدي أنّ قوانين المدينة فيها شيء من الجنون فمنها:

_ أي خطر يهدد المدينة الضيوف أولى في حمايتها حتى وإن كانت زيارة سويعات.

_ تمنع عن الإناث أيّ وسيلة ترفيه وتعليم.

_ يمنع التعارف والتواصل مع أهل المدينة، عدا مزاولة نشاطاتهم المعتادة التي تفرض نوعا من الاحتكاك.

_ الخبز طعام مقدس على ما يبدو، وملزمين بشرائه يوميا حتى على الضيوف، فلا يؤكل غيره. وأعتقد أنّه قانون طريف، وفي صالح نساء قافلتنا. لكن أغرب ما سمعت من كلّ هذه البنود العجيبة، تحريم أي نوع من العلاقات المتبادلة (صداقة، مجاورة، رفقة وحب...)، خرق أحد البنود يترتب عنه عواقب مشؤومة لم يقدم أيّ معلومات عن نوع العقاب، بل تقرّر حسب مجلس المدينة. تهكمت من هذا البند الأخير، ليس وكأنّ مكوثنا موسما هنا سيجعلنا عشاقا وأصحابا.

أعلن بواب المدينة دخولنا، وكان صاخبا كالمعتاد، من بين شباب وشابات القافلة أخذنا نزف النغم هنا وهناك، وكان أخي ينافس رفاقه بحركاته المرنة بينما ينفث النار هنا وهناك، وغيرهم ينشرون صدى وجودهم بين أزقة وشوارع المدينة التي بدت في الوهلة الأولى شاحبة ومقفرة. كان ملبس سكانها عتيقا موحد الهيئة ذو لون مترب، ورغم الانقباض الذي انتابني واصلت اللف والدوران مع رفيقاتي لعلّنا نصبغ هذا العالم الساكن بالحياة. نشرنا لونا من الحياة وحاولنا إزالة التجهم ورتابة الاستقبال، ضيوفا سنكون ولن يطول وجودنا ويزول، فلن نكون لهم إلا ذكرى تدوم. اهتم كبار القافلة بأمور الاستقرار، العربات وتنصيب الخيام جوار المدينة البيضاء، استقر العرض في ساحة المدينة، دقت الطبول وعلى صفير صوت المزامير يعانق الكلمات، والأقدام الحافية تدفّ الأرض المعبدة بالطوب الأبيض. دفعتني الأذرع وسط الحشد، ويزاح ستار الأكتاف عني لأرى غفرا فضوليا يقتنص النظر هنا وهناك، وعلى رؤوسهم تحوم تساؤلات، بين الخوف المريب الذي يضخ أنفاسي المتوترة بسرعة، والانفصال الروحي الذي تحسست حدوثه فجأة، أدركت حينها أنّ هناك شيء ما ليس بمكانه، وشعوري لم يخطئ أبدا بشأن هكذا أمور. أخذت نفسا عميقا وجعلت من زخم صوتي يصدح في الأرجاء على صفير الشباب والدف يتناغم مع كلماتي، أخذت من وجه من أعرفهم حولي بهجة الغناء متداركة ترددي:

رقص تحت ضوء القمر

غناء على أطراف الأنهار
في أرض السحر والخيال
نسجت كلماتي لؤلؤا ونجوما
رغم أنّي لا أجد كلماتي في بعض الأحيان
لكن مازلت أحبك
دع قلبك يرقص واضرب الأرض بكعب قدمك
كن حرا وارقص في هذا العالم العجيب
حلق واحتضن تلك اللحظات السعيدة
مجهولة الاسم
عليّ التقدم
واكتشاف ما وراء المجهول
فقلبي مازال ينبض
ارقص تحت ضوء القمر
غناء على أطراف الأنهار
في أرض السحر والخيال
نسجت كلماتي لؤلؤا ونجوما

تعالى التصفيق والصفير وأجراس الأقدام وأحزمة الخصر بعملاتها النحاسية رنانة، اندفاع من حولي، والشباب ينفثون النار على الجوانب، في تلك اللحظات يتجمد الوقت والحركة فيولد تفاعل حيّا دافئا يهتاج نبضا ومشاعرا، تسقط حينها الكلمات عن واجبها، وتعتزل الأنغام عن

دورها، ويسبح المحيط بهجة وسرورا، فبمثل هذه الأوقات المحدودة. أودّ فقط لو تتكرر اللحظة إلى ما لا نهاية، أو تتجمد حتى أتمكن من تأملها للأبد، حيث أقف هنا وأحتوي كلّ تلك التفاصيل وأغزلها ذكريات أوقدها حينما تهجرنا الحياة برعايتها.

مسحت دموعا منهمرة خفية عن العالم، وبدأت أعدّ الوجوه السعيدة من حولي، منهم أهل القرية وكانت وجوههم تبشر بالحبور. في تلك اللحظة والغريب فيها أخي الذي انشغل مع شخص مريب، كان وجهه وجسده ككلّ مغطى بعباءة بالية، لم تكن ملامح أخي مرتاحة لكن وكأنّها في صدمة وحيرة، ولغة جسده متوترة على غير صلابته. لمست بداخلي شعورا غريبا انقبض قلبي، حاولت تخطي الحشود أمامي لألتحق بتوأم روحي لكنّ تيار الحركة وردود أخي الهوجاء أبعدته والشخص الواقف أمامه.

إنّها ساحرة بصوتها الناعم، سوف تنسي هذه المدينة البيضاء أشغالهم، آه منك يا أختي! صوتكِ يسقيني ذكريات الماضي الجميل، والحنين لأحضانها، ما كان عليك تركنا يا أمي؟ صوتها يحيي ويجسد طيفك الحاني.

تسابق الحضور بعد نهاية غناء أختي البديع، أخذت أتراجع مفصحا الساحة للتقدير، حينها تلامس ظهري بقوة بأحد المارة، انتابتني رغبة في تهشيم هذا الذي عزلني عن نهر ذكرياتي المتدفق. أخذت نفسا محاولا تملق من ورائي، وتجاهل أيّ رد فعل لا ضرورة له، فنحن لا شغل لنا مع

هؤلاء القوم البليد، بين فاصل في الزمن ونظرة مسعاها عقيم، انهارت الحواجز سقط القمر من السماء، ورقصت النجوم على الغيم دون ألحان، وسالت الألوان ونبض القلب بالحياة.

- عذرا... أيّها السيد... أنت تدوس على أشيائي...

- هل قالت لي أيّها السيد؟ هل أنا من تخاطب هنا؟ الرحمة، فصوتها سهم ثاقب.

تداركت وضعي وما فتنت به لا حق لي في وصفه، مددت يدي ملتقطا ما كنت عليه واقفا، لكن ردّت ما لها لي وقالت في عجالة: احتفظ به، إنّهم يراقبونني.

دست بين أحضاني قرطاس، وزادت قائلة: لا سلطة لهم عليكم، سأعود إلها، أَسْمِعْنِي اسمك؟

قلتها وكلي حيرة: هارمان...

بحروف صارمة بها وعد أمين: هارمان، سأجدك، انتظرني...

تلاشت بين الحشود وتلاشى معها شتات النفس تاركة ألف سؤال يحشو فراغ خيالها، انتشلتني يد ناعمة من الضياع وتبادر إلى مسامعي صوت أختي تستفسر وضعي، تداركت نفسي لكن ردّي المقتضب زاد فضول أختي: لتين يكفي أسئلة، أخبرتك إنها مجرد شخص من البلدة، اصطدمت به تبادلنا الاعتذار، حل الوضع.

أعرف أّني أكذب، لما أفعل ذلك؟ ما حاجتي للتستر عليها؟!

مرت بضع أيام ومازلت أحتوي كومة الورق الملتصقة تلك بين أشيائي، حافظت عليها وأبعدتها عن الأنظار، لقاءها أظنّه مجرّد حلم وما وعدها إلا زيف، سأتخلّص من آثارها ويكفيني أملا طائشا.

خرجت وشباب القافلة بين الأزقة، الأحياء، نعرض على أهلها بعض الألحان، الحركات والحيل، مِنا مَنْ يتغزل ويغتنم الفرص للخلابة، وغيرهم من ينشر الهرج ونختلس في حين غرة كلّ ما ينفع أو يلمع. في ساحة المدينة حيث اجتمع بنا الأطفال وجميلات المدينة، بدأنا العمل والجد حيث الأشعار تلقى والألحان تسقي الأسماع، ونظمت حينها فتيات قافلتنا فعم الزهو والرقص المكان.

من زاوية عيني رأيت ظلها وداعب قلبي طيب طيفها، تركت من هم خلفي سعيا للقياها. عجل يا قلبي! فلا أود أن يختفي سَنَّهَا. تبخّر طيفها رغم سرعة خطواتي ولهفة فؤادي، عدت خائبا والسرور يجافيني. حل المساء بسرعة وخارج الأسوار البيضاء حيث صففنا الخيام في نصف دورة، كانت النار متوهجة، وكلّ فرد بشغله عالق، وأنا نظري في ذلك اللهيب زائغ، شعرت بقدومها وجعلت بعض البسمات تداعب شفتيّ لأزيل الشك:

- أخي، عذارى الخيام يشكين من خمود وسامتك، وقلبي لا يطاوعني أن أرى قلوبهن مكسورة.

قطعت حديثها الطريف بتهكم: حيلة ذكية، لتسألي عن أخيك الوسيم.

أخذت بيدي وتشابكت أصابعنا بقوة، حينها استقرت أنفاسي وتناغم ضجيج قلبي بدف حبها وكأنّها تقول: أنا معك، سيكون كلّ شيء بخير.

حينها كنت ممتن لوجود توأم لي، لست وحيدا، هي نفسي القوية وملجئي الحاني، لا تسألني عن الأمان أنت لست بأحضان ساكنة مراعية. لغتنا تنتقل قلبا لقلب، هي اللحن المنشود، هي القصص والأحلام تساند وجودي وتدرك هشاشة روحي قبل الجميع، فما أنا إلا الجزء الخفي وهي كلّ وجودي.

نادى منادٍ من شباب القافلة من بعيد، وكان نداء لعوب، انتصبت موقعا جبين أختي بقبلة شكرٍ طويل تاركا إياها بنفس الوضعية. أعلم أنّ ثباتها يعني الكثير، أدرك في أعماقي أنّها ستظلّ بجانبي ولن تغيب شمسها عنّي، بثّ الأمر في قلبي فيض من سلام، وأخذت مسلكي خلف الخيام متجها إلى رفيقي مستفسرا. استقبلني بإشارة من يده وغمز بشقاوة وخلف بسمته ألف سؤال يحشوه الفضول، توغلت وراء الخيام بين الأشجار لأدرك حينها سبب كلّ تلك الحركات المريبة والمثيرة للسخرية من رفيقي.

أصابني الارتباك لحضورها وكأنّي بمقام عليّ السكوت والإنصات، حضور مهيب يضخ جمالا. انشرحت أساريري واهتاجت أمواج الروح وضخت أنفاسا متسارعة. سألتها، ويا لها من وفية للعهود: كيف تذكرت وجودي يا أميرة القراطيس والكتب؟

ردت بوجه ضحوك، والحسن في ملامحها تغنى، أما قلبي ألقى السلام على جنان السماء في عينيها:

- كان عليّ ذلك، فكنوزي أمانة عندك سيد هارمان، فهل يمكن لك أن ترجعها لي؟ وسأعوّضك، فلقد استغللت وجودك حينها، فاطلب ما شئت، ألهيتك ولكم حينها مشاغل تكسبون بها قوت يومكم.

قطعتها والقلب ثائر : ما تعتقدينه فينا باطل، لسنا بقوم جشع، لن أطلب تعويضا من خدمة أديتها حبا للخير وشهامةً، لسنا بهمج يا آنسة، الكتب لنا من الكرامة وعزة النفس، فلم يجلبنا لمدينتكم الرتيبة طمع، نحن الرحالة أبناء الأرض، نملك السماء والهواء، الحجر والشجر، النهر والواد طريقنا. ما وراء الجمال والجبال مبتغانا، لم يكن يوما رأسنا منكوسا وهممنا شامخة بين طيور السنا.

أخذت للوراء بضع خطوات، وعينيها اغرورقت بمطر الشتاء: لم يكن مقصدي إهانتكم، فقط ظننت في ذلك شكرا؟!

راجعت نفسي وأدركت همجية ردي، شعرت حينها بارتجاف كلماتها وملامحها. لم أتردد لحظة واعتذرت لها معبرا عن أسفي، فلم يطاوعني قلبي أن تظل عيونها مُغْتَمَّة.أجلستها على إحدى جذور الشجر وانتقلت إلى خيمتي بسرعة؛ لأجلب أمانتها، بعدها أخذنا حديثا طويلا، تمنيت أن يمتدّ طول الدهر، فقصت لي عن مغامراتها الطريفة في إخفاء الكتب والورق، وتَجَاهَلَت بعض الأسئلة التي جعلتني حائرا بشأن المدينة وقوانينها. ارتحت لصوتها الحالم، كانت أشبه بعصفور مكبلّ في قفص.

أخذت أشياءها وغادرتني بعد أن أخذت إذنا لذلك، لكن أدبرت وقلبي مسلوب بوعدها على العودة قريبا، ولم أتهاون في عرض مساعدتي لها مجددا ومجددا بعدد البسمات التي نثرتها عليّ نجوما.

حواسي كلّها على استعداد، لا أنام الليل قريرة العين، القادم مرعب، وما أفعله محرم القانون، قانون ولا يجوز عليّ كسره، خاصة أنا، سليلة زعيم المدينة، أدمنت الأمر وأصبح هواء وماء، ولم أعد أتحكم في عطشي للمزيد. قليلة الحضور شاذة التفكير، وحيدة معزولة في أركان هذه المدينة، فلم أكن أشبههن، كلماتي وحركاتي مقتتها قريناتي؛ فلم يحبن سلوكياتي أو يعتدن على طباعي، فكنت لهن كالمختلة المنبوذة. أبعد نفسي عن أنظارهم في الأزقة والشوارع أود أن أظل بعيدة عنهم سهم وفكرهم، يظنّ الجميع بي الكثير ويظلّ وجودي على طباعي شاذ عجيب، لست عيب، لكنّ وجودي بحد ذاته عقبة لمشاريع والدي المبجل. أهل المدينة انتظروا من زعيمهم سليلا ذكرا بكرا يرعى شؤونهم، وكانت لهم محاولات، كانت على عد الأصابع، فقط لمجرد ذكر واحد لكنّ للقدر خطة مباغتة. هدمت أحلامي الوردية ورغباتهم البائسة، مرض الأم لأيام طوال ووفاتها بعد سنوات معدودة دفع أبي إلى الجنون، كان شديد الكلام، عنيف التصرفات، يسب غاضبا حتى لو ذكر اسمي بحضوره، وينعتني بالآفة والبلاء، ولا يفوت فرصة عرضي على الصاحب الغني أو المعجب التافه البليد. أصدّ أيديهم الممتدة وألزم الهروب في أي فرصة حتى تسمح

الفرصة بالعودة، مستعدة لِكَمٍ من الضرب المؤلم والشتم القذر، وللأسف لا أحد لمعاتبتِه على كلّ هذا.

تستقبل المدينة قوافل تجارية نهاية كلّ شهر طويل، فتتم المعاملات بين تجار ومشايخ مجلس المدينة، وكان لي من بين هؤلاء الزوار رفقة وبسرية تامة، يتم تزويدي بالكتب، الورق والأقلام، ومن بين فتية التجار هناك أمرد ظريف سريع البديهة فهيم، كان لي خير معلم وصديق يصغرني بسنوات، لكن له من العلم والحيلة ما أعانني على فهم ولو القسط القليل من دوامة المعاناة التي ابتليت بها.

أجمع همتي وآخذ حرصي في كلّ صباح باكر بعيدا عن عيون النميمة، أسلك أزقة كثيرة وفي ردم بأحد جدران المدينة وخارج الحدود والجنون، بنيت بيت سلام من خشب وقصدير، حيث أشفي جراحي وأدفن كلماتهم، مشاعري، دقات قلبي وفيض أحلامي ضممت فيه غنائمي نفائس من كتب ومخطوطات تم مجلس المدينة التخلّص منها خشية الوعي، الإدراك والتغيّر، نعم، أدركت هذا باكرا. كلّ الحرس الذي توفره هذه المدينة اللعينة لسد كلّ مسلك يؤدي إلى كشف خديعتها الكبرى. مازلت أنتظر حتى تحملني الرياح مع تسارع الفصول بعيدا من هنا. يجب أن أكون قوية، تحت هذه الأكوام، سوف أستمر بالوجود، أبني أسوارا من خيال، وأرسم أحلامي ألوانا بين أكوام الدفاتر والورق، يقولون أننا مخلوقات متشابهة فما تعتقدينه مجرد ترهات، عليك دفع تلك الأفكار

الممسوسة في رأسك إلى حفرة النسيان، لا أشبه قطيع البهائم المنتكس، مدينة لعينة تحوي شعبا أيّهما خاضع للتفاهة وغارق في الحماقة والبدع.

رأيت بهؤلاء الوافدين من الغجر كمًا من الحرية والراحة، وكأنّ العالم بين يديهم ويجوبونه متى طاب لهم السبيل. الخيام منازلهم، والأحلام جدرانها، أمّا شموس الأيام ونجوم المساء تسرد قصصهم على طول الدرب المجهول. أغبطهم على العيش الحر، ترحالهم مغامرة فلا هم تحت حكم الأطماع، فالعالم كلّه ملكهم وسُلطة الطبيعة الوحيدة التي تسري عليهم. لا زمهرير يعيق مسارهم أو جرفا يقطع خطاهم، يستمرون في المسير ما دامت الأيام، الفصول والسنوات تتعاقب كالكلمات في القصص والأساطير.

تمنيت لو كنت مثلهم، لا يقيدني لا جدار ولا عين تراقب، فقط أنا وأنفاسي التي ترتجف من غد مجهول، وفي الأخير سأكون ضحية خيارين، إما أن أقتاد غصبا إلى أحضان رجل لئيم تحت بركة المصلحة العامة، أو أرفض وأظل ميتة الروح وعاجزة الجسد تحت رحمة النبذ والسوط بشعار البنت العاقة.

مرت الأيام بسرعة، وألفت طباع هذا الوفد الجديد بكم كبير من الغبطة، ونذر قليل من الغيرة. إن كان حق عليّ امتلاكي تلك المشاعر المتناقضة، أكثرت من الزيارات واعتاد أهل القافلة عليّ وزاد تعلقي بهم أو ربما التصاقي به. كنت أعتقد أنّها غيرة لكن لقلبي الأحمق مقال آخر، فهام في فلك هذا الشاب الحر شديد العود، قوي الحضور وحافظ العهود،

فكم من موقف أثبت طيب جوارحه وصفاء كلماته، أسمعني الكثير عن العالم، الشجر بألوانه، الشمس بأشكالها، الغيوم بخيالتها، الأرض بمعجزاتها، وشاطئ البحر أثناء المغيب مع لذة السمك وكؤوسا من الذكريات، وصف ما احتوته العين من قصص نسجتها أطياف نار السمر ونجوم السماء، كذلك المطر، الزهر والألحان.

أحببت كبيرهم وصغيرهم، أحلامهم وكلماتهم، وبكلّ لقمة من طعامهم تنفجر كوكبة الأذواق والمغامرات، وكأنّ كلّ تابل يضيف سكونا وفضولا للاستكشاف، والعجيب الذي زاد تطلعي لهم يوما بعد يوم عرضهم السخي في كشفهم على كنوزهم، تحف نادرة، مجوهرات وعملات من كلّ فج بهذه الأرض الواسعة، مخطوطات وكتب نادرة، عهود ورسائل تحوي شعبا بتاريخ، وبكلّ لغات العالم كتبت قصص رومانسية ذات وجود عن عواطف التوق واللقاء، عن أمّ مشتاقة وحبيب مفقود وأخٍ مغدور، وكثيرة تلك اللحظات السعيدة المجهولة التي تضمّ العالم في لحظات من زمن غابر دُوِنَ بحروف عن حقائق وحوادث عجيبة، عن وقائع ويوميات كلها دشنت بتفاصيل ملامحها وزخم مشاعرها وكأنّها حدثت منذ لحظات، عن عقاقير عدة وفوائدها، نباتات كثيرة باستعمالاتها حتى وصفات الطعام وأشهى الحلويات من شرق العالم إلى غربه متنوعة أشكالا وأذواقا.

متعت نفسي وأدركت أن خلف جدران المدينة اللعينة تلك، وجود كائن قائم يدعو إنسان مدفون هنا ليخوض في كلّ هذه خطوة، وهنا لمعت

الفكرة، يجب أن يعلم أهل القافلة عن الطامة القادمة وينجو بأنفسهم، لا ينبغي أن تهدر هكذا معارف في بلدة الشؤم هذه، وليكن إعلاني هذا ردا على طيبتهم ورحابة الأذرع، وربما صدق تعبير على مدى تقديري له، هو وأهله أرواح حرة لا يجب أن تكسر أجنحتهم فهم أبناء العالم، وما أنا إلا سليلة قوم عبدوا الرذيلة واعتنقوا الطغيان.

شاهدت الحياة ترقص في عينيه ومعالم السرور تدشن أحلاما بريئة على ملامحه، خيالات رسمتها الأيام وأصبح لأخي هارمان كنز فان تجسد في حسناء الكلمات، عاشقة الأحرف وأميرة القرطاس، لقب أطلقه أهل القافلة ونساء الخيام، فعِشْقُ هارمان للفاتنةِ أُودْرِي واضح للعيان. الوقت يعدو وقَرُبَ فصل الفطام، أسابيع قلة تعدّ بالأنامل وعليّ إيقاظ الفتى الولهان.

وجودها بيننا زاد الأجواء حيوية، تعلّق أهل القافلة بها كأنّها وهج سراج منير يحوم حولها الكبير والصغير، لكن لا أحبذ تلك الفكرة، أودّها محورا و أنا المدار أطفو حولها، أتلك غيرة أم هي نزوة تملّك؟

تعدو الأيام وبدأت احتفالات الوداع، كانت المدينة تبالغ في مراسم الود وحسن العشرة وطيب الكلام. كان الأمر مريبا لكن قلنا ربما هو تقليد من أهل المدينة يقوي الوصال، ومن المتعارف عندنا قبل فصل الختام نحدث مهرجانا خفيفا كحسن الختام، ولدفع عجلة الكسب السريع قبل أن نشدّ الرحال. أسبوعان على التوالي حفل صاخب، أكل،

نغم، لهو ووصال. كانت أيّام شاقة لكن حوت من المتعة والذكريات ما ينسيك نكد الأيام.

تدرّبت مع الشباب كثيرا بأعمدة النار فعرضنا كان الأهم، خاصة في نظر الأطفال والحسناوات، تكراره في السَّمر مع عرض غنائي كان المفضل عند السكان. إنّها الليلة الأولى من الأسبوع الأخير قبل الرحيل، دعوت أُودْرِي وجعلت لها مقعدا خاصا قريبا لقلب العرض. رأيت في وجهها حزنا وفي عينيها كدر الشتاء، أرسلت لها بعض البسمات تداعب وجهها فأشرق قليلا ثم زال الهم عليها، مع بداية العرض بين نفخ النار والقفز وخطورة بعض الحركات ألقيت مقطعا غنائيا كان من إبداعي، بعدها تم حفظه من زملائي، فقبل كلّ شيء أنا غجري والغناء ملاذي، صخب وطبول لحن ناي ومزامير، لحن قوي وأعمق الأصوات، كلمات جهورة وسرعة إلقاء، هكذا أعلنت كلماتي من ثنايا فؤادي:

أخوض الطريق كزوبعة نار
أغوص في الأرض كجلمود من حديد
عزيزتي حبي لا خيانة به
حبي حجر الأماتيست مصقول
حياتي بين عينيك، الرياح التي تهزّ كياني
تنحتين الألم والجمال، أنتِ خيمتي وإيماني
أنتِ بوصلتي ووجهتي
حبك بربري يمزّق أيامي صفحة صفحة

تكلموا عن العشق
تكلموا عن قصص الهيام
تكلموا عن الحب المجنون
وفيك كياني غارق يتنفس
وبك قلبي ميدان رقص وجنون
تكلموا عن محرمات ولذات الغرام
لا أحد رسم حب غجري
لا أحد كتب كلمات مفتون فان
لا أحد تجرّأ وعشق كغجري
لا أحد عاش حب بربري
أخوض الطريق كزوبعة نار
أغوص في الأرض كجلمود من حديد
عزيزتي حبي لا خيانة به
حبي حجر الأماتيست مصقول
حبك بربري يمزق أيامي صفحة صفحة
تكلموا عن العشق
تكلموا عن قصص الهيام
تكلموا عن الحب المجنون
و فيك كياني غارق يتنفس
وبك قلبي ميدان رقص وجنون

تكلموا عن محرمات و لذات الغرام
أخوض الطريق كزوبعة نار
أغوص في الأرض كجلمود من حديد
عزيزتي حبي لا خيانة به
حبي حجر الأماتيست مصقول.

علا التصفيق والصفير، وتورّد خديها ترياقا أبديا، استمرّت الأنغام الناعمة وزاد افتتاني بها، مددت ذراعي لها واستقبلتها بترحيب، شددت جذعها إليّ و بدأت أغوص في نعيم. هَمَسَتْ برقة كطيف نسيم: عرضك مذهل وغناؤك عظيم... شعرت أنّ في لسانها كلام كثير لكن عجز وخوف تجلّى في ملامحها، سعيت في جعلها منشرحة الروح بجانبي عسى تتفوّه بما يكتم لسانها، وفي حين غرة شدّت ذراعي وأخذت تخترق الحشود بخطواتها الضعيفة بينما تعتذر من كلّ كتف صدمته أو قدم داست عليها وأنا كالمسحور أصابعي مكبلة في كفها الناعم، وخلف جدران المدينة بين الخيام وتحت أضواء النجوم وهمسات البوم، صعقت بحقيقة ما يجول و شلّت أفكاري على ما كان مستورا.

بدأ مهرجان الوداع، شباب القافلة كلهم نشاط وسعي، تعدّدت العروض وكثرت الاحتفالات، لم أكن مرتاحة. مررنا بالكثير من المدن وحال هذه المدينة عجيب؛ فكلّ النفور الذي أبدوه لنا في استقبالهم الأوّل مغاير لكلّ ما نعيشه الآن، كلّ تلك العطايا والابتسامات مريبة، أسمعت والدي الزعيم شكوكي لكن ردّه كان أن أستمتع بوجودي هنا بدل

حياكة أوهام غريبة عن أهل المدينة، إحساسي لا يخطئ، أصبح كلّ من حولي متلبدا هائما في السعادة، قليل الانفعال مرتخي الحواس سريع الرضوخ، وهذا لا يشبه طباعنا الحذرة المهتاجة.

مرّت الأيام على نفس الأوضاع، نفس السرور والرتابة، كأنّ وجودنا هنا أزلي، عطاياهم كثيرة وغير مريحة، تودهم فيه تناقض عجيب، فلا يأكلون ما يقدموه لنا بحجة أنّها هدايا تخصنا، كأنّي سوف أصدقهم. أين هي إذن روح المشاركة؟ إذن أطعموا أولادكم مما تطعموننا وتسقوننا أمام أنظارنا؟! الجميع غافل، وأخي العاشق هائم، والوحيدة التي تصارع كلّ هذا الجنون.

ظللت أراقب و الأوضاع تسوء، و ها نحن في آخر أسبوع، قلّ ظهور أخي أمام أنظاري مع انقطاع زيارة الحسناء، ولم يلاحظ أحد هذا، وكأنّ كلّ فرد من قافلتنا غارق في عالمه الخاص، منتشي بنعيم زائف. كثرت الاحتفالات وساد الزهو في كلّ مكان، وتحركات غريبة من أهالي المدينة، دعوات نتلقاها منهم، فهذا حفل بشرف وجودنا، وهذه سهرة مقامة حبا لنا، وغيرها كثيرة، وكلّها ود مقرف، عدت وحذّرت أبي وكبار القافلة لكن ما كان منهم غير الصد واللامبالاة، حزمت أمري وقرّرت أن أجتمع مع توأمي الهائم فربما أجد عنده أذن تصغي وحكم بالأوضاع.

تركت رسالة عند أقرب أصحابه وظللت آمل ظهوره في أي لحظة، مرّت أيام قليلة بينما كنت أتقصى أمر المدينة العجيبة، فأدركت انغماس رفيقاتي بمفاتن المدينة وانصياعهن لكلّ مباح وغير مستباح. عاتبت

بعضهن لألقى منهن النفور أو القطيعة، أما الشباب فمنهم الغارق في اللهو وغيرهم في المجون. زال وعيهم وذهب عنهم النضوج، أصبحوا وكأنّهم قطيع يساق نحو المذبح، أما مشايخ القافلة فكان العاجز منهم في سبات، وبعضهم لم يظهر له أثر منذ أيام قليلة، عجزت فلا حل بين يديّ، وجفت الأفكار والحيل. شيء فضيع يحدث في المدينة، لا يمكن لي الجلوس وانتظار الانهيار العظيم عليّ إيجاد المخرج وكشف المخفي، سعيت في التحقيق بحثا عمّا جعلهم بهكذا وضع حيث الكلّ منتشي في عالم منفصل عن الواقع، وكيف أنّ الشخص الوحيد الحاضر القائم بوعيه كان أنا؟! وعسى أخي ليس في نفس وضعهم؟! وبينما كنت أشدّ الحقائب و المتاع تحضيرا للرحيل ضربت الحقيقة إدراكي،اتضحت الأمور وحينها تحت الصدمة بعد ربط كلّ الحوادث دخل عليّ توأمي وحسناء الكتب وأصابعهما متشابكة كأنّهما كلّ لا يتجزأ.

متجاوران الكتف بجانب الكتف، متمسك بها كأنّها ستختفي إن ابتعدت عنه، أخي وأعرفه أدرك سعادته حزنه و توتره عناده وحبه، أراه يبتعد عنّي و يحلّق فيما وراء الأفق مستقلا يطارد أطياف سنا ذهبي. هنا أيقنت أنّ لا سلطة لي بينهما حذره همته، اهتمامه، تردده، تحفظه، شوقه، رعايته وعنفوانه، كلّ هذا لم يعد له، بل كلّه منسوج حولها. سرد عليّ حقائقا عدة صدمتني رغم ذلك كلّها كانت بعيدة وملتفة حولها كان يحميها، يحويها وكأنّها غير معنية أو ليست منهم، فأين لأخي قليل الانتباه مفرط الحماس ومندفع القرارات أن يحلّل ويحقق سعيا لكشف

المجهول؟ لا أنتقص منه شيئا لكنّه أخي وأعرف نقاط قوته وضعفه، وتلك الحسناء خلقت هارمان مختلفا، هارمان ينبض فضولا شغفا، إنّه يكتشف العالم وألوان الحياة وجمال الكون بين يديها، إنّه ينمو ويتعلّم، إنّه يبني وجودا لا أثر لي فيه، إنّها حصون صلبة تحويه وبجواره حسناء الكتب مستعدّة لتقف في وجه عواصف العالم، بجانبه أصبح الكمال والتناغم وتباشير السعادة هالة تشع حولهما، كلاهما نصف وكلّ كيان مقدس يطرد الألم والضياع ويجلب الود والرحمة، هذا إذن هو الحب.

تهاوى ستار الجهل وعرضت الحقيقة أمام عيني، فعجزت أمامها كمشلول، هل خدعنا وكنا لقمة سهلة الهضم لهم؟! رغبت حينها في حرق تلك المدينة بمن فيها، والويل لهم ولخطتهم الخبيثة، ونحن لأيام كنّا نظن بطيبتهم، لكن خذلنا وتَرَكْنا أنفسنا نساق إلى الهاوية كدمى العرائس بعد أن تمّت عرضها البائس.

عجنوا الخبز بعقار يذهب العقل ويجعلك إمعة أجوف ثم حسب قولها - وكم شعرت حينها بالخذلان بعدما أن رسمتها ملاك في حياتي ونصبتها قديسة في أحلامي- سيتمّ سلب كلّ عزيز ونفيس لنا وبيع أو استعباد كلّ فرد فتي، شديد قوي البدن بيننا، وينتهكون حرمة نسائنا، أردت أن أنكر قولها لكنّ الحقيقة واقعة لا محالة، وما نعيشه الآن أكبر دليل على ذلك، لم أرغب أن أصدقها، لا أريد إفساد قداستها في قلبي وأمام محكمة الفصل كان للعقل زمام الحكم. انتفضت أثور عليها وعلى

مدينتها اللعينة جعلتنا ورغم مكرنا نعيش خديعة تكاد تؤدي بنا للفناء، مثل الثور الهائج قسوت عليها بالألفاظ.

توقفت وخاطبتها متجاهلا دموعها الفياضة التي أغرقت وجنتها الكرزية: أخبرني إلى متى كنت ترغبين في إخفاء كل هذا؟ ألم تحنّي علينا رغم أننا رحبنا بك بأحضان دافئة؟ أهكذا تشكريننا!؟ بعد هلاكنا وضياعنا؟

أخذت أهز كتفيها لربما تعي الوضع الذي هم فيه أهلي، إخوتي وأصحابي، الخطر يصطادهم وهي كالبيدق الخبيث متنكر بوجه حسناء ينخر فينا حتى نغرق جميعا في هاوية لا عودة منها، ونصبح نسيا منسي. كنت الطعم الأحمق الذي افتتن بها، وما أضعفني لتخدعني أنثى؟! أنا العنفوان والعناد وما عدت أمامك إلا عبدا ضعيف الحيلة خائر العزيمة هالك دون قيم، ضائع في متاهة حبك بين رغبة حرقك مع كلّ فرد من مدينتك وحمايتك بين ضلوعي من القادم المهلك في عرين الوحوش البشرية تلك.

فضاعة الحقيقة التي أدركتها وبعدها اعتذاراتها التي لم تعد تشفي الجراح أو تهدئ الآلام، جعلتني أدرك مدى قوة هذه الفتاة التي أقدمت على خيانة انتمائها لتحمي من لا يصلها بهم شيء غير شاب أبله واقع في حبها، وود غير مشروط من رحالة حملوا العالم في قلوبهم وارتحلوا. همساتها بحروف الإعجاب والأحلام دغدغ قلبي وألانه، فخذلني وخلق لها

ألف حجة وعذر دفعني رغم العتاب إلى احتوائها، فهل هذا حب أو لعنة لفتها حولي فجعلتك الكمال لثغراتي؟!

احتضنت وجهها وشهقاتها، دموعها، خوفها وكلماتها المشجعة على التحرك بحنكة قبل فوات الأوان، ولن يعود حينها للندم حاجة، فأمامنا يوم قبل وقوع الخطة الشنيعة التي توافق يوم شدّ رحالنا والمغادرة، واصلت الاعتذار و أنا واقف أتأملها صاحبة الوجه البريء يتخلّل أطراف عيونها وقمة أنفها حمرة من كثرة الدموع وشعرها البري ذو الخصلات الأفعوانية المقصوص بشكل عشوائي أخذ يهتز مع شهقاتها، تقدّمت بخطوات قصيرة تتناسب وحجمها الضئيل الذي يخفي معالمه ذلك الثوب الترابي الموحد اللون مثل جميع سكان المدينة اللعينة تلك، رغم أنّها ابنة كبيرهم لكن مظهرها لا يوحي إلا ببؤس حالها، مدّت يديها التي تحتوي صرة صغيرة الحجم محكمة الإغلاق وبين شفتيها العجْفاوان قالت: هذه العشبة ترياق ستنعش نفوسهم وتبدّد بلادتهم وتجعلهم في حالة صحوة تامة، حينها استقروا على قرار واحد وانجوا بأنفسكم. كان عليا تحذيركم أبكر، كلّه خطأي ظنا منّي أنّكم مجرد رحالة لصوص، فأنتم غجر وسمعت أنّكم تنصبون وتخدعون، وآه على حكمي المسبق المتسرع بحقكم. كنت خائفة مترددة ورغم هذا أنتم أظهرتم حبا و دفئا، رحابة حضن وفتحتم أبواب الأمل والأحلام. أنا التي سدّ القدر عليّ أبواب الحياة، وكما ترى ما أنا إلا خطيئة وسليلة مدينة الرذيلة، وجودي عبث وعار لأنّي الشاذة عن القطيع، تحمّلت منهم كلّ أنواع الشتائم، الرفض،

التنمر والعزل، تم تجويعي ضربي بالسياط، وقريبا الزعيم أبي سيزوجني كالبعير مقابل مال لترويضي، فأفكاري خرق للعرف و شخصيتي كيان متلبس لجسدي، فعليهم تطهيري بحرق وتدنيس نفسي وأمنياتي، فهل تعفو عن فعلتي وتأخرّي في تحذيركم وتقبلَ حسن نيتي بأخذك للعقار وتنجو بنفسك وأهل قافلتك قبل فوات الأوان؟!

سمعت ما قالته حرفا بحرف وقلبي ينتفض لها حزنا، تجاهلت حكمها فما تفوهت به قسط من الحقيقة، فالحياة ليست بالمسلك اليسير ، فما سلبه منّا العالم علينا تعويضه برسم مسار يحوينا في كلّ البقاع والقدر بجانبنا يدوّن مآثرنا، والتاريخ يحفظ وجودنا ويسرد قصصا عن الرحال الباحث عن الحقيقة ومسارات الوجود، وأمامنا ألف وجهة وحياة وفرص بعدد الأساطير والحكايات.

نعيش حياة التنقل والترحال رغم التميز والاضطهاد، نجوب الأوطان ولا أرض تحوينا ننبض فنا، الموسيقى والرقص إرثنا قوتنا نكسبه من حرف أتقنتها أيدينا فما العيب فينا، كلامهم قدح أو مدح ويبقى وجودنا قائم رغم أنوفهم، فنحن الدم الساري والترس العالق والكلّ الذي يحوي أجزاء من كيانكم، نحن التاريخ المهمش، نحن القصص المحكية، العهود المنسية والحقيقة المدنسة، شهود الولادة والفناء، نحن الفوضى التي شهدت الكذبة العظمى وستسكت على الحقيقة القبيحة في انتظار العرض الأخير، فأنا الغجري المشرّد في العالم، والدرب دربي أنا.

أعلنت عن الكثير وهي منهارة بين الضياع، شاردة تتأمّل فخر كلماتي وعزة مبادئي. لست خائفا من حقيقتي، فأنا كما كلّ فرد فينا مدرك حقيقته ويفخر بكلّ وجوده، فنحن من نملك العالم وتظل أساطيرنا تُروى حتى تفنى العوالم، فنحن في عاداتكم، تقاليدكم، رقصكم، موسيقاكم، ماضيكم ومستقبلكم، نحلّ عليكم كالمواسم ونغادركم مثل الطيور المهاجرة، فيكم نحن تلك الروح المتعطشة للجمال والصخب، للسماء والأرض، للشروق والغروب، للترحال والمغامرات، فنحن الحرية التي تقدّسونها.

احتويتها وقبلت كلّ كلمة. اعتذرت منها، ما كان لقلبي خيار إلا الانصياع لوداعتها وبهاء طيبتها. أعلم أنّ ما فعلته خيانة عظمى وحسابها لن يكون باليسير، مقارنة بما عانته أدركت أنّ ما ينتظرها من عقاب سيكون فضيعا وأنا لن أقبل أن يمسّها أصبع من تلك الوحوش، بل لن أسمح أن يضرّها شيء وسوف أحميها بمخالبي وأنيابي، حتى ولو جعلت من نفسي الدرع والحصن، سأكون الملجأ والخلاص لها، لن أتركها بينهم، لن أرتاح، سأجرّهم لقاع الجحيم وأحرقهم فيها، ثمن ما فعلوه بنا وانتقاما لدموعك يا منقذتي وهلاكي، سيكون ما أفعله جنون، لكن انظري لعينيّ: سأهلكهم وآخذ بيدك لعالم جديد كلّه أضواء، عالم لا يحوي ظلال الخوف، عالم كلانا فيه كلّ. لا تعاتبيني على حبي وغرقي فيك، فأنا جاهل وأرجوا أن أتعلّم فنّ الهيام بين يديك وسأكون الطائع لك. يا قديستي أشعلت نار العشق في معبد قلبي المهجور، وفيه سأرتل كلمات شرف

غجري مجنون بك أنّي سأظلّ أقتنص النصر والحقيقة شوقا لبهجة عينيك.

عاتبتني وأكدّت على ضرورة تواجدي مع أهلي ومحاولة الفرار بدل محاولة إقناعها بحبي، فهي ترى نفسها لا تستحق أن أحميها، عقابا لخطيئتها، ومقتنعة من رفض القافلة لها، فما فعله أهلها أبشع من أن ينس أو حتى يغفر، حينها احتضنت وجهها المشرق وأعلنت لها بكلّ ثقة: أنتِ لم تعودِ منهم، سأقف ضدّهم، فرفضهم لك رفض لي. أمّا أنت فالروح ولا جسد دون روحه، أنت قطرة الحياة لظمآن وأنا أتعطش لك، و خَلقْتِ منّي صخب الأنغام، وصنعت منّي أوتارا تخلّد ألحانك، دعيني أقف قلعة وحصنا، أتوسّل لك خذي يدي ولنرقص للحياة وأنت بين أحضاني، فأنا رجل نُحِتَ فيه الإقدام فلا تخافي، سوف أهرب بك لآخر البقاع فقط عندما تطلبين ذلك، سألعنهم، أحرقهم، سأجعل كلّ فرد فيهم ينزف لدموعك، امسحي أحزانك ودعينا نرقص لنجعل التاريخ يصفق والقصص تدوّن مشهد الختام، ونجعل وجودنا كسرد أسطورة.

قرّرنا مواجهة الجميع، توجّهنا إلي أختي فهي ستكون أكثر من سيفهمنا، فهي توأم روحي فقلبها بقلبي، دخلنا على أختي التي انشغلت بحزم أمتعتنا واستقبلتنا بملامح مبهمة خالية من السرور، وكأنّها كانت تنتظر قدومنا، وفي حضورها أعدت سرد أهم التفاصيل متجاهلا كلّ ما يعني أُودْرِي، محاولا بجهد حمايتها من أحكام أختي، فأكثر ما يقهر روحي نظرات أختي المعاتبة، تجعلني أشعر بالعجز وكأنّي مصدر خذلان، لكن هذه المرة لست

وحيدا وسوف أبعدها من سيطرة تلك المقلتان، حبي لها كان بإرادتي وحمايتها أمر أنا الذي أقرّره، ولن أتزحزح عن وعدي حتى ولو هدّت الجبال، إنّها تحت جناحي منذ اللحظة التي وثقت فيها بي.

لم أصدق وضعي بين كلّ هذه الهواجس، ألم يسمع كلماتي؟! ألم يدرك وضعنا؟! عليه أن يعاقبني أو يعاتبني، ولا يرضى بالقليل، كيف له أن يكون رحيم بي، وما قصده من كلّ هذا الود واللين؟!

أرضى بغضبه نفوره، لكن لم أتوقع أن يغدقني بالسماحة والغفران، وبكلماته حطم الجدار الفاصل بين الواقع والخيال، وغرقت في هاوية الهيام. شلّت أفكاري وغاب كلّ الشؤم، انشرحت الأجواء وهب نسيم السرور يطرد أوهام الأحزان، وأصبحت أحضانه ملجأ وأمانا، همساته بالحب والسلام أراحت أوصالي، ولقد توّج قلبي بعشق للحياة والأمل وطمعا في المزيد. في حين غرة بينما السعادة تبني بيتا من الأحلام، تكدّرت الأجواء وأدركت الرفض الذي سيعانيه كلانا من هذا الحب، إنّه منحوس لن يقبل أهله بفتاة كادت مدينتها أن تهلكهم، ومن الجانب الآخر سيتم إدانتي وطردي بعد تلقيبي بالمُومِس وذلك كأدنى عقاب، وما أفضع الذي لم أجرؤ على تخيّله. انهارت روحي وأجهشت بالبكاء معتذرة له رفضا لحبه، وعوده، اهتمامه وتضحياته، لا يستحق شخصا ملوّثا مثلي، لكنّه عنيد صنديد شديد، نفض الخوف والضعف، اتقد شجاعة معلنا على رغبته بحمايتي، وبخطابه نحت في فؤادي حبه، غرق وجهي بين الدموع ومازلت أحاول، فعسى يتراجع وفي صميمي لا أودّه أن يفلت رابط الحياة

الذي نسجه لنجاتي، كلماته مجددا كانت ترتيلا ملائكيا، ختمت هواجسي وأسوأ الكوابيس وكمعجزة جعل لقاءنا إكسيرا من شهد وألحان.

قرّرنا معا مواجهة الجميع، وكبوصلة والقلب أعلم بمستقرّه وقف كلانا على عتبة خيمة توأمه لَتِين، كان استقبالها جامد يخلو من علامات السرور، تبدو مدركة للوضع وما يؤول إليه. وقَفَتْ ثابتة، ذات حضور راسخ تأسرك بعينيها، وتحكم بألف حجة، تعجن قراراتها ولا تصدر إلا الناضجة منها، في حضورها تستشعر الوقار، ستهاب أن تتفوّه بالترهات وهي أمامك تزن كلّ حرف برزانة، هذا ما جعلها مصدر ثقة عمياء لأخيها. أخذ هرمان زمام الحديث وكم كان حذرا في كلامه، حريصا على تبرئتي. استمعت لتين لأخيها هارمان بهدوء شديد وكأنّها حكيمة من غابر الأزمان، لم تقاطعه ولم تجزع من وضعهم حتى أنّها لم تعاتبه على قراره بحمايتي، بتنورتها النبيذية الفضفاضة التي تهتز العملات النحاسية المعلقة كزينة عليها مع كلّ حركة تقوم بها، وشعرها الغجري الذي يتمايل حول خصرها الذي يحيطه مشد أسود ذو ياقة واسعة، تبرز نحرها المزيّن بحلة فضية. اتجهت تطلّ خارج الخيمة تراقب الأرجاء ثم عادت مجددا حيث كان كلانا واقفا، وهنا طلبت بصوتها الحسن أن نجلس وننصت لها، أطعنا طلبها بأوّل ما تلفظت به. انهارت الأحلام التي نسجناها، أخذ هارمان يشدّ بيدي وكأنّه يمدّني بالقوة، كان راسخا وكجبل شامخ أمام عواصف الدهر، حينها قرّرت الصمود ونحت قدرنا معا.

متمردا في قراراته هكذا عهدته، ورغم رفضي الواضح الذي رسم على ملامحه الخذلان، واهتزت مقلتاه معانقة الفراغ أو ربما الوحدة، شعرت بوخز مزعج يدفعني لأخذه بين أحضاني مواسية، ربما سوف أتجاهل كلّ ما حدث وآخذ بيد أخي وحبيبته، لكن متأكّدة أنّ القافلة لها قرار مختلف، ولن يرحبوا بالخائنة بينهم، أنا عاجزة تماما كيف سوف أحمي أخي وحبيبته، قراري صدمه، أعلم أنّه لم يكن ينتظر هذا، لطالما اعتاد دعمي له، مساندته وتبرير أفعاله أمام مجلس الكبار، لكن مواجهته بالحقيقة التي هو مدرك بها أمر صعب عليّ، إنّه أخي دونه أنا الجناح المكسور والأطراف المشلولة، وهو السيرورة والحياة، فيه أرى الغد والأمان.

تقبّل أخي رفضي في دعمه، ولم يزد على الموضوع حرفا. أدرك الوضع، سيسعى إلى حمايتي، قبل كلّ شيء سيجعل نفسه المتضرر الوحيد، عنيد لن يتوسّل دعمي ولا وساطتي خطته واضحة، سينقذنا جميعا وبعدها سيختفي هو وأودري، ولحين تطبيق خطته عليّ أن أجد منفذا لكي أساعده، فلن أتحمّل فراقه وحزن خذلاني له يملأ قلبه.

أخذنا نضع معالم سير الخطة مجهولة النتائج، محاولين جعل أمان القافلة أوّل اهتماماتنا. صنعنا مشروبا من العقار المتاح توجهنا صوب بقية الخيام وصببنا للمعتلّين وفاقدي الألباب، وهكذا بعد الصحوة سمع الأعيان ما كان، وقرارهم كان صارما كأغلب الأحيان، فعلى هارمان هجر أودري والاستعداد للمغادرة قبل فوات الأوان. شعر بالخذلان

والكثير من الأحزان، لكنّ صموده وعزمه سيهزم المحال، في تلك الأثناء أفلتت أودري يد هارمان وسلكت طريق الهروب بعيدا عن الأنظار .

لَمَّ أهل القافلة عتادهم بالسر واستمر بعضهم بإلهاء سكان المدينة، ومن بينهم هارمان الذي لم ينفك يبحث عن أودري التي غابت عن أنظاره.

أعدّت المدينة أشهى الأطباق وأحلى زينة حفل الليل، حفل الوداع والذي سينهبون فيه القافلة، ويعتدون على أهلها وهم في غفلة عن أمرهم تحت تأثير العقار المدسوس في مشربهم ومأكلهم الذي امتنع عنه أهل القافلة دون علم أعيان المدينة. استمر التمثيل وكلا الجانبين يسعيان إلى تحقيق مبتغيهما، وقبل حلول الليل حدث أن أدرك سكان المدينة التغيّر الغريب في أهالي القافلة وقلة عددهم، تحققوا فتبيّن أنّهم اكتشفوا طينتهم فعجلوا في تحقيق خطتهم، اجتمعوا سرا واستعدوا للهجوم قبل حلول ظلام الهزيع.

جرت بين الأزقة أودري متجاهلة ما تلتقط أذناها من تحذير منثور من النوافذ وعتبات الأبواب، كانت العيون عالقة عليها تستفسر حالها المزري ودموعها المتناثرة على وجهها الحزين، لجأت جنوب المدينة خلف الجدار المتين حيث تنتمي مكسورة الأحلام مهزوزة الروح في كوخ جدرانه طوب أحمر، سقفه خشب منخور.

بحثت لتين عن حسناء الكتب والكلمات وتلقّت من إناث المدينة النفور والازدراء، رغم ذلك أدركت موضعها فقلة من الأطفال أشاروا لمسلكها، فقد لاحظوا وجودها هنا وهناك تجري بحال مزرٍ على غرار ما اعتادوا

عليه. أخذت بإرشاداتهم وأمام الجدار المنيع وبين الخردة، صناديق الخشب المهترئ وبضعة براميل تفوح منها زيوت قابلة للاشتعال، تراءى ثقب من الجدار، أزاحت تلك الفوضى، وجدت منفذا بحجم صغير، انزلقت منه لتين وها هي أمام حصن أودري الحزين، منه تعلو شهقات ناعمة. دخلت عليها ويا له من منظر بائس، ضمّت لتين أودري وراحت تواسيها، بكلمات بثت العزم والطمأنينة، شرحت لتين خطة محكمة وضعتها لدعمهما، رفضت أودري فكرة لتين بحجة أنّ لا خير من تواجدها مع هارمان، فها هي تجلب له عداء القافلة وأهله، وما حبه لها إلا ابتلاء. انتفضت لتين ولامت أودري على تفكيرها البائس وجعلتها تقسم، وتعدها أن تحضر إلى جدران شرق المدينة و تنتظر هناك بعد أن تسمع صفيرا عاليا، وهكذا تركتها بين أحزانها وتردّدها تتخبّط، لكن الوعود قيود وما عاد لأودري إلا الانقياد بمسار الأقدار .

أخذت بمعصم أخيها بين الشباب وعلى زاوية أحد الأحياء همست له بموقع أودري، وخطة زادت من حماس هارمان ليتجرأ وينفذ قراره ولن يلين، بينما كان شباب القافلة يقدّمون عروضهم على أبواب المدينة شرق الجدار المتين شهدوا قدوم السكان بأسلحتهم الكثيرة، منها البسيطة كالسكاكين والفؤوس، وبعضها كانت سيوفا وبنادق صيد، وحتى للأطفال نصيب من تلك الأسلحة البيضاء، بمجرّد أن استوعب أبناء القافلة الوضع تجمعوا واتجهوا إلى باب المدينة، ووراء عتبة البوابة الضخمة وقفوا، رفع هرمان صوته متسائلا: هل ودنا لم يرضِكم، هل لوجودنا

معكم سوء؟! أم أنّكم مجرد عاهة أرادوا الفساد والبلاء؟! لا حق لكم في الرد، -أشار هارمان لصغار المدينة- دنّستم البراءة وقتلتم الأحلام، وأنشأتم أفرادا تبعا لا حياة فيهم غير عبادتكم، في عقولكم مرض السلطة والثروات، أغرتكم الشهوة فأصبحتم في الحضيض، جنونكم أطاح بشبابكم وأصاب أحلام أبنائكم، فلا خير فيكم وما أنتم إلا بلاء ونحن منكم نجونا، جعلنا أحبتنا يغادرون ونحن سنلتحق بهم قريبًا بعد أن تنالوا جزاء فعلتكم الحقيقية.

ردّ زعيم المدينة بغيض شديد وهو يقترب مع الحشد الغاضب نحو البوابة: اللعنة عليكم، بيننا خائن ونحن نعلم بذلك، وويل للذي وشى بنا، سيشهد منا تنكيلا، ولن نتوقّف عن فعلنا حتى بعد قرون، عقيدتنا قائمة حتى لو نجوتم سيأتي غيركم، فما أنتم إلا غجر لا حق لهم و لا حقيقة، فلا أحد سيصدق مَنْ عُهِدَ منه الخداع، الكذب والحيل القذرة، ربما نجوتم منّا لكنّ غيركم سيقع عاجلا في فخنا.

بينما انشغل الزعيم وأهالي مدينته بالرّد على هارمان وأصدقائه، أشار هارمان بجلب أسهم مشتعلة وأمر في حين غرة تسديدها من خارج الأسوار إلى وسط المدينة البيضاء، وكذلك فعل بعضهم على عتبة البوابة الكبيرة، وهكذا اشتعلت المدينة، أصاب سكانها ذعر كبير، فلم يتوقعوا هجوما كهذا، وهرع الجميع إلى منازلهم وممتلكاتهم خشيت دمارها من الحريق، وهبوب الرياح زاد من اتّقادها بينما بقية الشبان الغجر يحاولون إغلاق البوابة الضخمة، انسلّ هارمان إلى داخل المدينة

وحاول رفاقه ردّه عن هذا القرار، لكن أمرهم بعناد أن ينفّذوا خطة أخته وينجوا بالأحصنة المقيدة بالغابة ويلحقوا بالقافلة قبل ابتعادها.

امتط رفاق هارمان أحصنتهم و تركوا حصانا أصهبا بين جذوع الشجر مخفيا حسب طلبه، و بسرعة الرياح انطلقوا إلى الأفق وراء القافلة وفي أقصى المدينة خلف الجدار احتشد دخان يخنق الأنفاس في مخبئ أودري، شعرت الحسناء مليحة الوجه بالارتياب خرجت من جحرها وسخم الدخان يعمي الأبصار، سلكت أزقة المدينة وأصوات الذعر تعلو من كلّ مكان، شهدت والدها يثور يسلك الأحياء ذهابا وإيابا يشتم قافلة الغجر ويتوعّد بأشد عاقبة للخائن. حينها واصلت أودري سعيها إلى اللامكان والمجهول بينما عينيها اغرورقتا أشجانا، فما سأل عنها وما خاف عليها، إذ كان همه سلطته المنهارة، وحيدة كنت وفي أشد الأزمات واقفة بين الأهوال لا حامي ولا نصير ، وهكذا أدركت أودري أنّ بقاءها هنا خطير، فإن كشف الزعيم والدها أنّها الواشية فما ينتظرها من حساب سيكون عسيرا. تداركت وضعها وشجّعت نفسها على الصمود، حينها تذكرت وعدها وأخذت تسرع نحو الشرق متجاهلة ألسنة اللهب الحارق، كلها مزيج من الخوف والأمل، علا صفير مميّز أدركت صاحبه بسرعة توهّج وجهها استبشر قلبها النجاة والراحة وأمام الجدار حيث وقف هارمان مادا ذراعيه ارتمت أودري في أحضانه، احتواها يتأمّل فيها وهي تتشبث بقميصه تطالب النجاة والأمان. الأجساد تتساقط كالموت والأجسام تتهاوى أطلالا، وظل كلاهما على الجدار الذهبي من أنوار النار

وزرقة الدجى يرتقي بوجود الآخر، وكأنّ الحياة فيهما تشرق، والوجود نحت حبهما الخالد كبداية عهود ودّ وقصص حب مقدسة.

شتت تناغمهما صوت زعيم المدينة الشنيع الذي بدأ ينهر أودري بازدراء، و يشتمها دون حياء، بعد أن فطن أنّها المحرك لكلّ مصائبهم. قام بالاندفاع إليهما مع حفنة من الرجال لكن سرعة ونباهة هارمان أنقذت الوضع فقد شجع أودري على أن تتسلّق كومة صناديق جهزها سابقا، ومن وراءها قبل أن يصل إلى طرف الجدار دفع الصناديق المتراصة واعتمد على رشاقته في التشبث على الحافة الجدار ، وحينها في لحظة تأمّل للمدينة المشتعلة وملامح الزعيم الساخطة، ابتسم هارمان بكبرياء وشموخ، شدّ خصر أودري بتملك وقال: كانت الروح البريئة فيكم أيّها القوم الدون، وما عادت منكم سأحيي فيها الأمل، الغد والمستقبل، وقلبها مسرور، احترقوا ثمن كلّ دمعة وغصة نهشت روحها، أيّها الأب المزعوم، ابنتك صارت القلب لي، وجسدي يرفض الحياة دونها، تحياتي لكم ورحلة سعيدة إلى الجحيم.

غاص كلاهما لما وراء جدار المدينة الملتهبة، حينها عزمت أودري ألا تلتفت إلى الماضي الأليم أبدا.

أخذت القافلة تبطئ في المسير، ومن ورائها في الأفق البعيد لاحت رؤوس شابة ودخان جَوْنٌ يعانق الفجر و يتشابك مع ضياء شفق الصباح، أشبه بلوحة عالقة في الزمن، الجميع يتأمل المنظر كأنّه مجرد كابوس عابر.

همس الزعيم بجانب ابنته لتين: أهذه خطتك بنيتي؟
ابتسمت لتين بفخر: لا يا أبتاه، بل هو قدر غجري عاشق.
همهم الزعيم، وبصوت أبوي فخور: سوف تجمعنا المسارات فالروح الحرة تجذب أشباهها.

استمرت القافلة في سيرها والأفق يرسم قصص عجيبة تنتظرهم في المجهول، بينما العالم يقود قلوب هؤلاء المشردين الحرة إلى مسار غير معلوم،أخذت لتين قلم وورق و بجانب إحدى النوافذ بعربتها بدأت تسرد الحقيقة بحبر الخيال فنسجت بحروفها أسطورة جديدة.

احتضنت كومة من القش خلف الجدار جسد هارمان الذي يحوي بشوق و تملك جسد أودري، و بكلّ حذر انتصب وبين ذراعيه فتاته الحسناء، بينما ثلة من رجال المدينة يحاولون فتح باب المدينة الموصد بعتلات وبعض الخردة الثقيلة وعربة مهترئة تم التضحية بها، توغّل بين جذور وأغصان الشجر بالغابة حيث عُقِلَ حصانه، امتطاه وهو حريص على التي بين ذراعيه، ضمّها برقّة، وبحذر أجلسها بين أحضانه وخلف الروابي انطلق كسهم جامح يشقّ مسار حياته، ويحفر قدره متشبثا بالأمل، بينما سماء الأحلام تتسع وترتفع عاليا مع شروق الشمس.

اعتلت الشمس الغيوم واخفت النجوم، وجعلت الأفكار والوديان تشرق بريقا، وبإحدى السهول النظرة أخذ كلٌّ من هارمان وأودري أنفاسهما تحت ظلال الشجر والغيم يتدبرّان الحياة وعجيب صنعها، وفي حين غرة بادرت حسناء القلب في طرح فيض من الأسئلة. شرح

هارمان الخلفيات الغامضة لبعض الأحداث التي شغلت تفكير أودري، وتفاديا للسرد الطويل قال: بعد زيارات أختي لكِ انتبهت لبعض الخرق والخردة القابلة للاشتعال في طريقها للعودة بين الأزقة، ومادامت هي أختي وتوأمي، فهي تدرك طباعي وعنادي، بل تقرأ أصغر تفاصيلي ومدركة لصدق حبي، رغم رفضها الظاهر لكن كانت طوق نجاة وحياة لكلينا، بعد ذلك كما تعلمين انشغلت في تطبيق خطة بسيطة لهروبنا، ومع شباب القافلة تمكنّا منْ إنجاح ما اتفق عليه، بعد صد الباب التحق إخوتي بالقافلة، وكما ترين تركوا حصاني كما طلبت منهم معقولا بالشجر في قلب الغاب المحيطة بالمدينة، و بقية الأحداث كنت شاهدة عليها.

سألت بحرج وتردد:

- ألن تفتقد أهلك، قافلتك وأحبتك، ألن تشعر بالوحدة بعيدا عنهم ومحبوسا في حب فتاة قليلة الحيلة ضعيفة الوجود.

- سأكذب عليك إنْ قلت أنّي لن أفتقدهم، لكن الآن أنت عالمي، فيك ترسو روحي، والروح حرّة فيما تهوى، وبجوارك أنا أملك العالم وأنتِ الحاكمة، الوجود النابض والنجم المشع، وما أنا إلا غجري هائم في بريق نورك أرشديني فما عدت أطيق الضياع. شدّي يديّ وبينهما ستكونين مصونة مبتهجة يا قرة العين، وبين الطرقات ومسارات الحياة سأكون لك الجناح، الترس والرمح، وسأحيطك سلاما ودفئا، وبين الخطوات حين نجوب الأقطار سأذيقك الفن، النغم والجمال. فهل سترضين يا لبيبة الكلام بعيش بسيط الحال في رحاب الحرية والسلام؟

هزت أودري بحياء رأسها بمعنى الرضا والقبول، وقلبها مغدق بالسرور، وبين شفتيها ألف كلمة شكر. ابتهج هارمان وضمها بين الأحضان.

هبّت نسمات تراقص الأجواء بين السهول و الجبال و مع توال الفصول حملت رسائل الود و الحبور قصصا و ذكريات يستلمها الأحباب و تنشرها عبق في الأجواء حينها تطمئن القلوب.

سنوات تطوي سنوات، و بين العشب و أزهار النوار في أحد السهول البعيدة، وبجانب بيت خشبي بسيط، أركانه من حجر، فتاة شابة ذات ملامح مشدودة بارزة، والعين حادة ذات لون زيتوني زاه يحيطه كحل أسود، والخد ورد أحمر وبين شفتيها تشدو كلمات وكأنّ نايا لحن حروفها، أخذت أميرة الحسن رقيقة القوام تهزّ جذعها النضر المشدود بثوب ربيعي فضفاض الأطراف، تزهو وتعانق السماء وتدور كفراشة تقبّل الرحيق، وتشتهي الفضاء، برقة تتراقص خصلات شعرها البربري الجَوْنِ مع بتلات الزهر والأثير، تداعب بأناملها الورق وتنثره كأنّه رشات عطور. قطع زهوها صوت ذكوري جهور يلفظ اِسمها بحنان وسمو: أَمِرَ صغيرتي، أمّك بحاجة إلى بعض المساعدة هنا.

ردّت بتذمّر طفولي لطيف: أبي كنت أتخيل أهم مقطع في تلك القصة، ألحان ألوان أضواء، كان المهرجان ينبض بالحياة، كنت أشبه برحالة يستكشف احتفالا عظيما من احتفالات هذا العالم العجيب، أقنعة مبهرجة وأثواب مزركشة وترانيم تشدو في كلّ مكان، وما كنت أنا إلا عابرة في ذلك الزحام.

طغى على كلماتها الأخيرة غصة أشجان، شعور بالحنين والشوق إلى طرقات العالم وأحضان الحرية والسماء، حينها تبادر إلى ذهن هارمان سيل من الذكريات العتيقة، جعلت الدمع عالق على زاوية العين المشتاقة، حينها نسج القلب تخيّلات تجسّدت أطيافا خلف ابنته البكر، انتفض الفؤاد يلفظ أسماءهم: أختي لتين، أبتاه، الصحبة والأحباب...

تقدّم هارمان وضمّ ابنته بدفء يبث فيها أغلى الروابط، والشوق للأهل و الأقارب، تقدّمت أودري تتأمّل المشهد وكلّها يقين أنّ زوجها العزيز لم يعد يطيق البعد، فالغجري العنيد الحرّ بداخله استفاق. رفع هرمان بصره وسعادة طفولية تطفو على ملامحه، وبوجه مستبشر بسام قال بحماس: علينا شدّ الرحال عزيزتي أودري.

ابتعدت أَمِرَ بشقاوة وفضول تسأل أباها: ماذا تعني يا أبي؟! أين سنذهب؟!

شدّ كلاهما في عناق أُسَرِيٍ بهيج وأعلن بصوت جهور كلّه بهجة وسرور: سنعود للديار، سنعود للديار، سنعود للديار... إنَّ الديار تنادينا.

الرقصة الأخيرة

تقول إيزادورا دنكان: "أنت لا تعزف
على البيانو وأنت ترتدي قفازات".

تفاهات يمكن ترتيبها على سطر معوج سعيا إلى تحقيق شعلة الرغبة في ضمير ميّت لا حياة فيه، تتهاوى الحروف في السطور بشكل عشوائي، تتشكّل هذه الترّهات في المدينة اللّعينة حيث الصلوات بها طلاسم مجانين، وتنقطع الأنفاس، فلن ترغب في الكف من التنفس والصراع، ترغب في تذوّقه كيف هو مذاقه حلو كلمسات عذراء منبوذة، أو لاذعة كآثام خائن، وعود الحياة تتموّج والأسئلة في زحام غريب كرؤوس متزاحمة في محطة القطار، فتنتحر ببطء على السكة الحديدية، فتجتمع الأجوبة في موكب حزين كمدينة رمادية عالية أسوارها والأسرار مساكنها، أهلها جثث عفنة متكدسة تنبعث منها روائح كريهة، كلّ صباح و مساء تتردد بين أزقتها همسات وتراتيل، تنتظر الخلاص أهلا بكم في المدينة المزيفة.

أعزائي المشاهدين لمتعتكم، وبكلّ سرور أقدم لكم مجنون المسرح:

- مرحبا، تشرّفت بمعرفتكم، أخبروني أرجوكم، أين أنا؟ أعتذر كلامي غير واضح، الأصح قول من أنا؟

جرّ من ورائه كرسيه الخشبي، كان يصدر صريرا مزعجا كذكرياته العتيقة، خطواته متباعدة مستقيمة يشوبها هزال وركاكة، وسط المسرح تمركز الكرسي وأخذ يجول حوله، نحيف السحنة، شاحب اللون، باهت

التعابير. أخذ يدور ويدور والرأس تهذي والروح وحيدة في جوفه تعوي. تهاوى على الكرسي والأنفاس تعلو، وللحظات وعلى وتيرة ساكنة بدأ يعلو صوته الضعيف يردّد نغمة حزينة بها كم من الضجيج الذي يجعلك ترتاب من مصدر النغمات.

منكوس الرأس، واضعا ذراعيه على أفخاذه المضمرة، وظهره يرتفع مع كلّ شهيق يأخذه. كانت الدليل الوحيد على أنّه حيٌّ، فقراته المتباعدة على طول هيكله أشبه بطريق جبلي صعب المسلك ذو قمة عوجاء، مزال على نفس الوضع يهمهم بنغمته الحزينة. كانت الأضواء حوله زرقاء شاحبة، ذات منافذ ضيّقة، حتى دفء الأمل منعدم، عار الصدر ، ظاهر الهيكل، خاوي القوة، من الزاوية الأمامية كان ساكنا ثابت المحور.

الظلال نحتت أضلاعه وأسقطت عليه رمادا باردا أحاط كتفه الأيسر، وعلى يمينه زرقة المصابيح الكهربائية جعلت من هيكله أشبه بأنقاض معبد مهجور، بزاوية قائمة أمام هذا الضريح المتداعي، قطرة وراء قطرة أخذت تلك الدموع الأرض مصبا لها، كانت غزيرة ساخنة تفيض بإهمال شديد تحفر مجاري وأخاديد على وجنتيه، وقف آخذا قميصه ماسحا وجهه المنهك، نازلا على الخشبة، مغادرا المكان.

أخذ يتمشى بهدوء وكأنّه يتسلل، المنعطف الأول ثم تلاه المنعطف الثاني، زُقاقان ثم قفز على عتبتين بالرصيف المتهالك على قارعة الطريق، واستمر في السير لبضعة أمتار، انعطف يمينا إلى الجانب الآخر من الطريق المعبد، حيث يقف شامخا عمود كهرباء، أخذ منحدر نزول نحو

حي كان أشبه بعلب ورقية تشبّعت بالرطوبة والندى، لا يظهر عليها غير اللون المترب المبلول، تقطر من سطوحه القصديرية أمطار الصباح.

دخل بسرعة محدثا صوت نشاز أصدرته مفاصل الباب الصدئة، توجّه بخفة من خلال الرواق المظلم، ثم بعدها أخذ زاوية قائمة داخل غرفة محدودة المحيط، كان الضوء ساطعا من منفذ، ذو إطار مربع يأخذ حيزا على الجدار ، وأسفله مباشرة يقبع ذلك السرير المترب، يحيط جسدا هزيلا ضعيفا عليل الحالة، انحنى عليها مقبلا جبهتها:

- كيف حالك جميلتي؟

أخذت نفسا عميقا لتردّ بصوت مهزوز :

- لقد قضيت وقت ممتعا وأنا أتخيّلك على المسرح.

انقطع نفسها بسعال مسحوب بقطرات دم انتشرت على منديلها الرث...

هب نحوها والفزع بادٍ في عقد جبينه وعيونه الفاغرة.

- أمي تماسكي، لا تتحدثِي، خذي القليل من الماء...

ساعدها معدلة جلستها، واضعا في حين غرة رأسها بين أحضانه، وخار وهي تضمه يبكي بصمت.

بهمس كان يسرد مكنونات قلبه لها: أمي أنا خائف...

بلطف ويد ناعمة بدأت تطمئنه: لا تبكِ يا صغيري...

- أنا عاجز أمي... أخشى اليوم الذي سأكون فيه وحيدا فارغا دونك.

اختنقت أنفاسها حزنا: أنا معك دوما يا طفلي...

احتضنها بشوق أكبر، محاولا احتواءها بين أضلاعه، حيث لن تأخذها الحياة منه ولن تسلبه آخر رغبة له في الوجود، فلقد كانت أحلامه أمنيته وعالمه، كانت الدين الذي اعتنقه والنفس الذي يستنشقه، النعيم الذي يشكر الرب صباحا ومساء على وجوده، كانت القمر الذي يضيء لياليه الجَوْنِ، والخوض في هذا المقام وصف وقصص لا تفي المجلّدات حقه.

أخذت أدور بالغرفة معدًا شيئا يحيي روحها، شاردا في اللاشيء، فلم يعد دماغي يستوعب أهوال ذاتي، أدع نفسي تتلاشى بعيدا حيث لم أعد أشعر بها عميقا في نقطة أجهل تواجدها بداخلي، هل أنا أهرب من نفسي بهذه الحيلة الرخيصة، أستمر في التفكير، حتى لم أعد أدري في ماذا أفكر، هذا كثير عليّ أكثر ممّا يتحمّله دماغي الصغير ، لم أعد أود أن أتنفس، إنّه يتحدث معي مباشرة، يضحك بصوت عالٍ إنّه لا يريحني، أهو ضميري؟ أهو أنا؟ أم شخص آخر بداخلي يعبث بي يدفعني للمجهول؟ لا أدري حتى إذا كان ما أفعله هو الصحيح، أشعر أنّي شخص آخر، يعبّر خلالي، يتلاشى وكأنّه لا شيء، يقول وبصمت، فقط استرخِ، لكي تستمرّ الأفكار في الاكتظاظ، في التزاحم إنّها تنخر في أحشائي وبجنون أودّ تشريح هذا الجسد، فقط يكفي أن ألقي نظرة على تلك الترهات اللعينة التي تعبر من خلالي وتجعلني شخصا آخرا، تعبث بأعصابي، روحي وجسدي إنّها تؤلمني، تنعتني بالمعتوه، غريب الأطوار، ضعيف الوجود وركيك الروح، وحيد الذات وقبيح النفس.

أمام المرآة أراه جيدا، إنّه يضحك عليّ، إنّه يفعل نفس الأمر مرات كثيرة، يبتسم حدّ الأذنين، يوم أراه سعيدا وتارة أجده يسلخ جلد وجه والدموع المالحة تتكفّل بحرق الجروح، أراه يرقص، وفي الزاوية هناك جالس، أراه يعبث بأشيائي وهو يبكي، هل يبحث عن شيء محدد؟ لما لا يطلبها منّي؟ سأقدم له حتى نفسي، فقط ليكف عن البكاء، إنّه يؤلمني وبشدة، إن رأيته أمامي، سأقدّم له عناقا، حنانا وألوانا، يكفي أن يصبغ الجانب الآخر من المرآة.

- بُنَي!

نداؤها نجاة، يتلاشى مع صوتها ذلك الطفل من الطرف الآخر في المرآة، تجاهلت نفسي مرة أخرى، لكن إلى متى؟

- نعم أمي!

- لا تتعب نفسك بني، دع ما بيدك واسترخِ قليلا، تبدو متعبا، على ما يبدو أتعبك العمل في المسرح.

- أمي يا مخدري ضدّ الألم، لم يكن ما أفعله هناك متعب أبدا، بل أشبه بعيش الحياة الواقعية الأخرى، فقط هناك أمثّل ما أعيشه.

- لن تصدقي ذلك! يطلبون أن أكون أكثر مصداقية في وصف مشهد بائس، أليس مضحكا، كنت أتساءل هل حقا لا أتقن ما أعيشه؟

- أحكام الناس عزيزي أشبه بطعام فاسد لست مجبرا على أكله؛ إن كان هناك شخص يصلح للعب دور بائس في مسرح للحمقى، لن يكون إلّا أنت.

قطع كلامها بنوع من المزاح متهكما: شكرا أمي، كنت أعلم أنّي أحمق، لكن الآن تأكّدت من ذلك...

بجو لطيف وارتباك الأم الحنون، حاولت أن تتدارك كلماتها بحزم: لا..لا.. لم يكن قصدي بني، بل أنت أكثرهم موهبة وتمكنا، أنت ابني وأنا موقنة بكلّ كلمة قلتها، أنا فخورة بك..

انحنى بجذعه مسندا جبهته بخاصتها: أمي.. شكرا لوجودك.. سأخرج لأخذ بعض الهواء النقي، هل من شيء تأمرينه جلالتك؟

انحناءة رشيقة واستقامة مميزة متقنا حركات الإتيكيت.

بابتسامة باهتة أرفقتني بدعوات دافئة: سلامتك بني، حماك الرب.

أخذت أجرّ أقدامي ذهابا وإيابا بين الأزقة والأحياء، حيث كان فكري حينها بين الأرض والسماء، شاردا في العدم أفكر، بين حلقة الفراغ أضيع للحظات، يمتد الزمن فيها دون شعور، الطريق يكون أطول عندما ترغب في الوصول إلى نهاية الطريق، ليس من العادل أن أستمر في التنفس حين لا أضيف شيئا لذاتي. هكذا تستمر العواصف في دماغي تعرض شريط أحلام هزيل ينقطع مع أوّل تنبيه من المحيط الخارجي، لم أضع يوما أملا في ذاتي كنت أدرك الواقع جيدا، وأعرف نهايتي جيدا، لكن رغم ذلك أفعل نفس الأشياء التي تحوي أملا مشرقا، لازلت أبتسم وأنا أستمع لهمسهم، أتجاهل المعتاد وأستمر في العرض، أنا وحيد ولست وحدي، يبقى أنّ كلّ ما أفعله عبثا أدفع نفسي للامتزاج لكن أجد نفسي على الهوامش، لا يمكن محاربة هذا للأبد، نحن جميعنا متشابهون حد

القرف، في لحظة أتدارك الوضع وأحاول جاهدا. نعم أنا المشكلة هنا أنا الخلل عليّ أن أدعس تلك الأفكار وأستمر في الوجود حتى لو كان باهة، أقف أمام المرآة يوما بعد يوم وأقولها بابتسامة عريضة "سيكون كلّ شيء بخير ".

- على من أكذب؟

لم تداعب شمس الصباح السماء بعد، الأجواء باردة أحاط المحيط ضبابا رماديا، الأرواح باهتة و الوجوه غير واضحة، القلوب عليها أقفال سرمدية ويمتد الطريق إلى السراب، فأصبحت المعالم مبهمة، حفظت الطريق فلم يكن من الصعب الوصول، القاعة يضرب بها صقيع يثير همسا موحشا في الأرجاء، كان الوقت المناسب ولا وقت غيره يصلح لأتواجد فيه مع الجميع بداخلي على المسرح، أنسلخ من ملامحي، أترك على جسدي ما يجعله أخفّ من روحي المثقلة، بعد انحناءة قائمة تتحرّك العوالم من حولي، يعزف الصمت الإيقاع ويتواصل النبض في الرقص حافي القدمين عاري الروح وريش جناحي مبتل، أواصل الرقص والأقدام تنزف، لكن كنت أدرك حينها أن لا أحد يراني حينما أنا أرى الجميع، أبصر نفسي الوحيدة والعالم أجمع محشور في عبوة مضغوط عليها بكم من هلوسات ستنفجر في حين غرة، حينها سوف ينجرف كم من الزخم الذي سيجعل العوالم تنهار .

أدور في حلقات، وبين الخطوات أفتح ذراعيّ أحتضن الفراغ أبسط الجناحين أعلى حيث تتلامس أصابعي، أنفتح بكياني وأغرس في الأرض

جذوري، أتقوقع بحجم بذرة وانحصر في حيّز محدود تتوهّج من حولي أضواء دافئة، بدأت تتلوّى عظامي المكوّرة تمتصّ رطوبة الدموع التي تهطل كأمطار، كان الخَلْقُ جميلٌ فاتن الترتيب أنيق التكوين، ألم يكن العدم أصل الوجود؟ ولكل بداية أصل معلوم، حيث يزهر الأمل، العطاء، والحب فيسلك إلى المجهول مسار الحياة محاربا.

تأخذ الأمور الجيّدة وقتا طويلا لحدوثها، حيث يتأهّب الكون لاحتضان الولادة الجديدة، يرسم لها أحلاما وأهوالا، فينحت تفاصيل البكاء، الابتسام، الفخر، الإصرار فيظللها ببعض الشحوب والسواد، تتعدد المسالك ويبقى المصير ذو وجه مجهول مرعبة توقعاته وغريبة صدماته.

تنفتح السيقان ويمتد الجذع، يعلو وتحتضن الأغصان السماء بشوق تتسارع الأنفاس المخنوقة وتتسابق مع نبض الجهد، يتمايل الجسد الأجرد مع الرياح وتتجلّى حقيقة الوجود وآهات آلم الخلق.

تتخبّط الحركات مع جدلية الخير والشر فتتبدّل الأقنعة والإيماءات، تختلط في حين غرة الملامح فتنهمر حينها الدموع وتعلو نبرات الحزن الشجي، في حين آخر تمتزج هلوسات لمعتوه ذو ضحكة صاخبة، هكذا بدا المسرح ثائرا حيّا، تسلّلت الأضواء إلى الزوايا وهدأ النبض وانهارت الألوان.

أخذت قميصي ومسحت قطرات العرق بين كتفيّ، جذعي وأطرافي، وأخذت أبعد الكراسي عن قاعة منصة المسرح وأنظفها بعدها بخطوات سريعة. مررت على الكراسي ماسحا إيّاها بخرقة مبلّلة، بعدها وعلى

المنصة نفضت الستائر المنسدلة وأعدت الديكور خلف المسرح، وقمت ببعض الترتيبات في الكواليس من كنس ومسح وتصليح لبعض الملحقات. التقطت مسامعي صوت خطوات وأنفاس أجسادهم، وبحركة خاطفة ارتديت قميصي المغبر وأخذت مسلكي إلى آخر المسرح أتمّ عملي وكأنّي مجرّد زينة إضافية هناك تستخدم وقت الحاجة. كان عليّ عدم إصدار أيّ صوت مادام المدرب وطلابه في الساحة، التزام صفة الشفافية في المكان شرط ضروري للعمل، فأيّ صخب سوف يزعج بيئتهم الإبداعية، الويل له.

انشغلت بتتبع كلام مدربهم في زاويتي، رغم تركيزي على العمل بين كلماتهم وصلني خبر رسم دوامة حماس وتردد، لم أصدق أذنيّ و لكي لا يغيب عنّي حرفا، مؤكدا ما سمعت، بدأت أكرّر كلّ كلمة طيلة اليوم وكأنّها تعويذة ألعن بها أي معيق يقف جدارا أمام هذه الفرصة النادرة.

أعلن المدرب عن مسابقة في الرقص التعبيري منظمة من طرف معهد الفنون الجميلة، وسَيُقَيِمُها أساتذة ومتخصصون في المجال، وعلى ما يبدو من ملامح الطلبة المندهشة والمتحمسة، فهم بالتأكيد مشهورين، لكن لشخص مثلي فالأمر لا يفرق في شيء، فالمهم لي أن يراني العالم موجود وأعرّفهم عن ذاتي التي ذاقت الجمال والكمال بين ظلال وهواجس الوحدة أثناء شروق الأمل الصاعد، ارتقاء نشوة الحياة وأفول شعلة الوجود بعد غروب كلمات الحب ودفء الأنفاس.

سجّلت اسمي بسرّية تامة، فلا طاقة لي لتحمّل التعليقات من حولي لا إيجابا أو سلبا، فقط أودّ أن أظلّ شبحا منعدم الحضور كما كنت دوما إلى أن يحين موعد العرض. أعرف حدود وجودي وما فعلته الآن كان جنوني، إنّها خطوة نحو المجهول، أعلمت أمي وكانت البهجة والتشجيع ما تلقيت منها. استغللت الأيام القليلة قبل موعد المسابقة بالتدريب، أقضي وقتا كثير ا في المسرح قبل حضور الطلبة وحتى بعده، انتابني شعور بالذنب لقلّة عنايتي بأمي لكن كانت دوما ما تعاتبني على هكذا أفكار وتقول بكلّ سرور إنّها بخير وفي تحسن. طبعا وضعها لم يختلف كثيرا، فمزال السعال والإنهاك ينخر جسدها، صدّقت ابتسامتها البريئة وكذبتي الحمقاء على نفسي، ألم يكن هذا ما أفعله دوما؟ أكذب على ذاتي؛ فكلّ شيء سيكون على ما يرام، في الأخير إنّها حقيقة الكذبة العظمى، وأنا مدرك أنّي سوف أدفع ثمنها غاليا، قبل مغادرتي عتبة المنزل أتأكد من وضع أدوية أمي بجانبها والقليل من القُوت الذي يسد جوع اليوم، ثم مباشرة إلى مسرح قبل أن ينتهك هدوءه الحضور.

حان اليوم الموعود وكان صباحا باردا والغيم متناثر رمادي، أما المنزل الصغير كان شاحبا صامتا وكأنّه يعاني انتكاسة عاطفية، حتى الجدران تدخل في نوبات كآبة على ما يبدو، فتقفد الدفء وتلك الأنفاس الهادئة، حينها ستدرك جمود الوقت، فراغ الزوايا، توجّهت إلى غرفتها راغبا بمخدري جرعة الحياة، فتحت النافذة بمجرد ولوجي. أزحت الستار على الجانب لتعانقني رياح رطبة محمّلة بلسعات برد الخريف. كانت الغرفة

الوحيدة في هذه المكعب المحدود التي تحوي نافذة، تعمّدت ترك الستائر المنسدلة منزاحة على يسار هذا المنفذ الصغير لتأخذ أمي وقتها في تأمّل السماء، كثيرا ما كانت تتمنى لو كانت جزء منها، ثم تبتسم وتقول: أحلام الناس عجيبة أليس كذلك يا ولدي؟!

أدرك أنّ أمنيتها سبيل للهروب من الواقع، بعيدة هناك في أعلى نقطة كجرم يسبح في فلك الكون، لن تمتد إليها الأيدي أو الكلمات حتى الأقدار لا تسري على جرم مشع أو صخر في السماء. إنّني أدرك جيداً أنّك لا تستطيع أن تساعدني، ولكنّي أتحدّث إليك في هذا؛ لأنّه بالنسبة لنا نحن الفاشلين الضائعين، لا منقذ لنا سوى الأحاديث. "أنطون تشيخوف"

خرجت من بوابة المسرح وجوه كثيرة، منها المستبشرة والمكفهرة، قيل أنّ الحكام ثلاث، قلّة الكلام ميّزتهم، وجمود المعالم دستور يطبق فلا ترى في جسدهم انفعالات، فلا حماس أو خيبة، فقط كلمتان تصدران بحقك قبول أو رفض، ولا طعن بعد صدور حكمهم فهم أرباب الفن الأنيق والمُثُلِ العليا. اكتفيت من عدّ الرؤوس التي تلج هذا الباب وتطلع، وانسحبت إلى إحدى الزوايا بجانب إعلان ورقي ضخم تستر على حضوري، وتكوّرت هناك أعدّ التوقعات واللحظات. كثر الرهط وهذا زاد توجسي، يتمّ دعوتنا إلى الداخل بأرقام ورقمي العدم، وأنا أشك في سماعه، ألسنا في الأخير أرقام مكتظة في رفوف مكاتب أرشيف العالم، مجرّد كيان شبحي يتقمص رقما ويختفي بعد نهاية صلاحيته ليحل محلّه كيان مجهول آخر، أشبه بكراسي السينما يتغيّر الجمهور المشاهد الذي

يجمعهم مصير مشابه لما يعرض على الشاشة الكبيرة، ينتهي العرض ليحلّ غيرهم أمام عرض جديد.

يدعس القلق أحشائي فينكمش وجودي، تضيق الأنفاس داخلي فيحشر الخوف نفسه داخل جسدي، فتزداد حينها رغبة ملحة في إفراغ المزيد من المساحة لذلك الشعور فيحتل كلّ شبر، تبدأ أصابعي في التيبس وأفقد الإحساس بها، ثم ينضغط الذعر أسفل خصري فتجفّ الأعصاب وتنكمش العضلات وتتجوّف العظام كأنّها جذع شجر خاوٍ، بينما القلب يتوجّس في صمت والرَوْع يلفّه فيزداد دقه حدّ الألم، يرتعش البدن ويخور فلن تقوى على حمله حينها تسقط في هاوية مجهولة القرار حيث تتجسّد أسوء الكوابيس وتنهار ، فتندفع الدموع كوسمة عار وخذلان، تقاوم الشهقات وتزيد من كلمات العتاب، تدرك هشاشتك وتعجز عن الفرار، فكرك مكبّل والوجود فيك ينهار، حاولت، حاولت، حاولت ثم حاولت ويا لي من جبان.

أخذت نفسا أو ثلاث أحاول استحضار أمي في البال، لكنّ الخوف يسكن أعماق ذاتي ويمتصّ كلّ شعاع دافئ رغم ذلك أظلّ أتطلّع لصورتها المشعة بداخلي وأتوسّل جوارها علّني أهدأ، أضم أطرافي وأنسحب نحو الزاوية فربما أندمج مع الظلال وأختفي هروبا من كلّ العثرات، النضرات والهمسات، ما أبشعني ويا لي من رعديد مذعور، تتكدس التخيّلات المظلمة حولي ويزداد المحيط حولي شحوبا، تمتد الظلال وتلتهمني وتدفعني إلى أعمق جزء من هاوية مجهولة القرار، حيث تتكبّل الكلمات

فأعجز عن الصراخ وإماطة حواجز الرهاب، حينها من اللامكان وصل إلى مسامعي نداء يحمل رقم أربعين بين قرار الذهاب أو الوقوف، متصلّب تجمّد الوقت من حولي وبدأت أهذي، كيف تجرأت وأقدمت على هذا الفعل؟ أخذت أجرّ أقدامي ورقمي يتردّد صداه حولي.

- لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟... أنا وضيع، فاشل، جبان.

دخلت ثم صدّت الأبواب، فات الأوان عن الهروب أو الاختفاء، عليّ تحمّل عواقب قراري، بدت ساحة العرض أمامي كمنصة إعدام وأنا المتهم الوحيد الذي يجرّ إليها بجرم التفاهة والدونية، أنفاسي تخنقني والأفكار تتصارع وتحشو جوفي، انتصبت وعينيّ على الأرضية ملتصقة والرأس يتدلّى كعرجون فاسد الثمار، تعالت الأصوات في كلّ مكان، تردّدت حولي ولم أستوعب الكلام كعالق وسط الأمواج العاتية ودويّها العالي يصدّ صخب المحيط، مرّ دهر عليّ وأنا عاجز متصنّم، وأنظار الحكام الثلاثة أمامي تسمر ظلي الهلوع حينها بينما السكون زاد وقارا للمكان همس أحد الحكام وتمّ خفض الأضواء وسلّط أكبر مصباح بضوئه الذهبي الخامل عليّ، جعل كلّ محاولاتي تتلاشى و تندثر، وبدا العالم كأنّه يدور حولي وأنا الوحيد فيه، ومع الموسيقى الكلاسيكية التي يرتفع نغمها في الأرجاء أغمضت عيوني وأخذت نفسا عميقا أعزل به وجودي، وتركت شجى الألحان يراقص جثتي.

طويت ذراعي واحتويت نفسي متكوّرا بجسدي البالي، وبلفّة بطيئة انفتحت على عالم شيّدته من خيال محيطه رماد ووجودي فيه سراب،

ينبثق من قمم أكتافي ورأسي المتمايل سخم داكن يعلو ويتناثر ثم يختفي كالغمام، بخطوات متكرّرة تارة يمينا وتارة يسارا باسطا ذراعيّ كمولود في عالم لا خلاص فيه، أحاول التشبث بالوجود الفارغ أخذت أتأمّل قبحي في كفيّ كأنّها مرآة بحثا عن الحقيقة، أزحف وأنا مغطى بالحزن، ضائعا في الظلمات، مشتت النظرات استمر في الدوران محاولا النجاة أجد نفسي عاجزة عن البوح بكلّ تلك المكبوتات، فأمسح على رقبتي أطالب بصوتي حتى ولو كان مجرّد تأوهات أو صراخ، قابضا على قلبي أترنّح من الألم وعلى الأرض استلقيت خائر القوى ضعيف الوجود، هكذا نحن المنبوذون من العالم، إلا أنّ الأمل فينا ينمو لغد أفضل، فانتفضت رغم كلّ تلك الوحدة منتصبا حاضرا أمحي الدموع مشيرا بسبابتي إلى السماء حيث القمر المشوّه بشقوقه وخدوشه، لكنّ نوره يضيء الأرجاء بلغة الإشارات، أعلنت حبي للحياة والجسد يتراقص بزهو، برقة تداعب الأضواء ملامحي المبهمة والسخم يغطيها ثم يتناثر في الأرجاء، ألف حول عيوبي وأضمّ ندوبي والأنغام تطفو في الأثير على وتيرة واحدة، أقفز دافنا ورائي ذكريات مهشمة وأحلام ممزقة، أخذت قلبي أواسيه أغسل عنه القبح ثم أدثّره وأخفيه بعيدا حيث لا تطاله إلا نجوم السماء، أداعب الفضاء والنغم على أطراف أصابعي أراقص الجمال، الألحان وذاتي الوحيدة، لم أستشعر الإجهاد، مجرّد طفل صغير على محياه بهجة بسعة الوجود، ختمت الرقصة وأنا أجثوا على ركبتيّ مددت ذراعي أرحب بذاتي الجديدة التي تخلّصت من قيود الخوف والهلاك وحيدا، والأنوار

فوقي كانت تبارك ولادتي بدفء. أتنفس بصوت صاخب والعرق يلمع بجسدي كأنّه تم تعميدي برونق الفن وبهجة الحسن، في كلّ حركة قمت بها وحينها من اللامكان ارتفع صخب التصفيق والصفير، توهّج المكان فتفاجأت بالحضور الذي تجمهر وراء الحكام وعلى محياهم إعجاب في عيونهم بريق الانبهار، ومن العدم أصابني ارتياب وتردّد مخيف، كيف لهم أن يرحبوا برقصي؟ أليس هم من رفضوا وجودي؟ كيف يمكن للبشر أن يكونوا بهذا التناقض العجيب؟

أدركت أنّ الناس قيم وقيمتك في ما قدّمت لهم. قدّمت لهم الفن الذي يقدّسونه فاعترفوا بفني وما أنا إلّا ترفيه مؤقت وسيزول وجودي بزوالي بريق موهبتي، حقيقة مرعبة أدركتها الآن، لكن ما دمت في بداية الطريق فإنّي لن أعود للوراء خوفا وارتيابا، سوف أدفن الجبن وأسجن كلّ هذا الضعف في الماضي وأخلق أنا جديدة تراقص أضواء وموسيقى هذه الحياة الزائفة، موهبتي هي هوّيتي، إذن سوف أرقص حتى تندثر روحي في هذا الوجود.

نلت الدرجة الأولى في هذه المنافسة مع قيمة مالية للتشجيع، لم أنتظر ذلك كنت مستسلما لفكرة الخسارة، فقط أرغب في مخاطبة العالم وأعلن حضوري، بالإضافة إلى توصية من أحد الحكام الثلاثة لإحدى معاهد الفنون، فحسب قوله بها سوف يتمّ قبولي وحينها سوف تتاح لي فرص ذهبية أمام أرباب الفن، ابتسمت الحياة أمامي لكن أنا مرتاب منها، لا يعقل أن يتمّ مكافأتي بهذا الشكل الباذخ دون مقابل، إنّها لا تقدّم

الهدايا بالمجان بداخلي وسواس يطالب بتوقع الأسوأ. حاولت دفع تلك الأفكار الممسوسة إلى أعمق مكان متجاهلا تقلّبات قلبي الذي يضخ الهم بدل الدماء بشراييني، أردت نحت السرور في محياها واندفعت عابرا في الطرقات كنجم هوى أحمل البشرى لعلّي أريحها وأرى نجوم البهجة في عينيها.

الأحداث المشؤومة ريح قوية تعصف وتزعزع أقوى الهياكل والمنشآت، كالصاعقة سقطت مصيبة لا مهرب منها، فتهاوت معها آخر أركاني، لم أكن مستعدا لمثل هذا الوضع، حينها وددت لو بإمكاني سؤالها ما يجب عليّ فعله، أنا لازلت بحاجة لها، مازلت صغيرا، مازلت أخاف، ولازلت أرى المنزل موحشا دونها، هل نسيت أني أستأنس بمصباح عندما أبتعد عنها بمسافة أمتار ويعزل بيننا جدار من خردة و طوب.

امتد الطريق نحو المنزل بشكل غريب، ما عدت أطيق المشي بهدوء فأخذت أهرول عليّ أقطعه في لحظات، السماء متلبدة والأجواء كئيبة على النفس، كأنّي أستنشق ثقل الهموم ولصعوبة تحملها أتنفس الصعداء كل حين أفرغ المكبوتات مع بعض الأوجاع، أخذت أعزل تفكيري المشوش متخيّلا أقصى درجات السعادة التي سوف تستقبلني بها أمي لكن ما إن أحاول خلق تلك الصورة المبجّلة بذهني ينبض قلبي وأستشعر حينها وخزا موجعا يملأ جسدي بما يعادل ألم الوحدة والفراق.

وصلت إلى الحي المهترئ الذي يترعرع فيه الكثير من أمثالي، يتمرغون في بركة الفقر ، أجسادهم هزيلة وأحلامهم ضبابية تتلاشى ببطء شديد فبالنسبة لأمثالنا الأحلام وجدت لتستنزف مخزون الأمل، بعدها تتحوّل لكوابيس تطاردنا إلى أن يفنى تجسيدنا في هذا الوجود، تفاديت بركة الوحل، الأرض ضحلة هنا نتيجة ذلك ألعاب الأطفال هنا كلّها طين خاصة بعد الأيام الماطرة، ولجت للمنزل المتهالك والباب كعادته يحدث صريرا مزعجا يعلن للبعيد والقريب أنّ وجودنا حقيقة قبيحة في هذه الرقعة المعدومة.

ألقيت السلام أنتظر الرد كالعادة، كرّرت السلام وصدى صوتي فقط يجوب الأرجاء، يضرب الجدران الخاوية ثم يرتدّ كموجة برد موحشة، انتقلت إلى غرفة أمي وكلّ جزء منّي يرتجف، انقبضت دواخلي وجفّت الدماء في عروقي بينما هي والفراش يحتضنها جثة هامدة، وجهها يابس مجدب وكاليائس دموعي انهارت تغرق ملامحي القبيحة، زحفت نحوها محاولا إيقاظها أهمس في أذنها، أتضرّع لها لعلّها تستمع وتستفيق، أتوسّل الخالق وأنوح، كيف لها أن تترك طفلها الصغير وحيدا خائفا يرتجف؟ ألا تعلمين أنّي أتمزّق كلّ يوم وبك أخيط جروحي وأبتسم في وجهك مستمرا في الصراع؛ لأنّك بجانبي كنت أحيا لك و أتغذى حبك وأنمو باهتمامك، أنا ضعيف غريق لن أنجو، حبيس ذاتي أنتفض جزعا وأرتجف من الوحوش تحت السرير من ظلال المساء ونعيق الغربان،

فكيف أظلّ وحيدا دونك حجرا دميم الشكل تتراشقه الأهوال حتى أستقر في قعر جب عميق بين العتمة أطمس فأصبح نسيا منسيا.

- أماه، أماه، أماه، يا أماه! قلبي يا أماه خذيه معك فلم أعد أتحمّل.

سمع الجيران عويلا موجعا يغزو الحي المهلهل وتدافعوا نحو المصدر، وجدوا الراقص المتوجع متكورا بجسده المتهالك بجانب جثة أمه، تناقل الخبر الحزين فتجهّم الحي وساد فيه وجوم شديد، انتشل الراقص الضعيف من جثة والدته، ولاحقا نقلت في موكب مهيب وراقصنا بين الحشود صامت بشكل مروّع على كتفه الجثة المتيبسة ينقلها إلى مثواها الأخير. غادر الجميع بعد مراسم الدفن وبعض كلمات التشجيع، ظلّ هو وحيدا منتصبا هناك يتأمّل القبر، والوجود حوله منهار، وها هو منتصب مجوف عالق في الأشجان، لا يمكن له حتى الكذب! فموتها حقيقة لا يمكن تزيفها. الآن سيعيش الألم والعذاب ويتذوّقه، كان سابقا يتخطى الهم ويزيف الواقع ويشيّد خيالات رقيقة تخفّف أهوال الحياة لكن هذه النائبة سيعيشها مرارا وتكرارا، ولا يمكن أن يعزل نفسه عنها ويشاهد من بعيد، فلم يعد من الجمهور غير المرغوب فيه، بل أخذ الدور الرئيسي في هذه التراجيدية القاسية، تهاوى أرضا واحتضن تراب القبر يشكو الوحدة ومرارة الفقدان، باغته الوسن وغفا بين الأموات، ما سأل عنه أحد من الأحياء وأصبح نسيا منسيا في الأذهان، بات بين الجثث كالولهان.

مرّت السنوات كالأيام وسُمِعَت قصص عن شبح فاره الوجه مشدود القوام، يطفو هائما يرقص على قبور الأموات، قيل الكثير والعجيب عن شبح القبور لتخويف الأطفال، لكن لا أحد تجرّأ وباح عن حقيقة الشاب مسلوب الحياة.

الفهرس

	العنوان	الصفحة
1	إهداء	4
2	إلى الفتاة المشتعلة بداخلك ملكة القلوب	5
3	جنون طبيبة	9
4	ملاك الجليد	16
5	يوم مع حفار القبور	29
6	ساحر القلوب	36
7	رجل في علبة	42
8	رجل بالمقلوب	57
9	سامحني أخي	64
10	لحن الغجر	69
11	الرقصة الأخيرة	108
12	الفهرس	126

نيفيليباتا: كلمة برتغالية تعني "الماشي فوق السَحاب"، وهي وصف للشَخص الحالم الذي يَعيش في خياله وأحلامه الخاصة بعيدا عن قواعد المُجتمع . الكتاب يحوي مجموعة قصص بمواضيع مختلفة بعضها يحوي لمسة من الفنتازيا يتناول موضيع نفسية، اجتماعية ورومنسية بطابع فلسفي. قصص نُسِجَتْ من عالم الأساطير تسرد خبايا النفس الغامضة العالقة بين السراب والوجود، تتسابق الكلمات فتتجسد وتصف عالم الظلال حيث تنتمي كل روح ضائعة، عالم الخيال فيه الحزن والجمال ثم حسن الكلام،حكايات بين أنقاض الحب والأشجان؛ فكل قصة ساحرة تبدأ بكان يا مكان.

صدر للكتابة:

قصص أطفال:

- وسيم و بلدة القطط
- وسيم و بلدان العالم

ISBN 978-9969-509-36-6

9 789969 509366

Sadjed ساجد

ساجد للنشر والتوزيع

تصميم

BOUZIANE AMINA